مذاهب وشخصيات

تاريخ الوجودية في الفكر البشري

بقلم

محمد سعيد العشماوي

مذاهب وشخصيات

تاريخ الوجودية

فى الفكر البشرى

بقلم
محمد سعيد العشماوى

مقدمة

انتشرت ، فى أعقاب الحرب العالمية الاخيرة ، بعض الألفاظ والمصطلحات التى ظهرت فى وسائل التعبير ، كأثر طبيعى لما احدثته تلك الحرب من نتائج ، ونتيجة مباشرة لأثرها الاجتماعى على المفاهيم الانسانية .

من هذه الالفاظ التى شملها الانتشار ، لفظ الوجودية ، وما يشتق منه من ألفاظ أخرى .

ولقد جرى انتشار هذا اللفظ بين كثيرين من عوام العلم — خطأ — على محاور متباينة متنافرة ، من أهمها بصدد البحث محوران .

أولهما : ان الوجودية ، بمفهومها الحديث ، بدعة غربية ظهرت فى فرنسا عندما اعتركت فيها عزة القومية وأمجادها بذل الهزيمة الحربية والاحتلال الاجنبى .

وثانيهما : ان هذه الوجودية ليست الا نوعا من المراهقة الفكرية يعلن الثورة على كل القيم ، تباعا ، فيوالى الكفر بها ، ثم ينتهى به الامر الى الالحاد المطلق .

ولما كانت هذه الفكرة وتلك جرما فى حق الفكر من جانب ، وحجرا على السماحة الذهنية من جانب آخر ، فقد اقتضى الامر بحثنا فى اصل الوجودية مبنى ومعنى ، واستقصاء لمفهومها فى الفكر البشرى منذ كان ، توصلا الى حقيقة ثابتة هى أن الوجودية قديمة قدم الانسان ، وانها — فى أبسط دلالة — تواكب نصرة الفكر الواقعى ، وتأخذ بيد الفرد الحائر الى حيث يجد نفسه ويلتقى بذاته .

***

وربما كان غريبا — في نظر البعض — أن يجرى فى مثل هذا

الموضوع قلم انسان تخصص فى الدراسات القانونية ومارس العمل القضائى تطبيقا لدراسته ، غير ان الامر يظهر على العكس من ذلك لدى النظر اليه على هدى الحقيقة من الفكر الوجودى · فالثقافة الانسانية ــ مع اسقاط كل اعتبار شخصى ــ تتصل بسبل الفهم الطبيعى من جانب ، وطرائق التصرف الواقعى من جانب آخر ، لهذا كانت العلوم كلها حلقات متصلة من محاولات النفاذ الى اللب والأصل ، ينتهى بها الى ساحة واحدة يتجمع فيها الجهد والتقدير ، الى حيث يدفع التقدم البشرى ، فى سبيل صائب ، نحو مثل صحيح .

ومن هنا كان كل بحث فى هذا الصدد فرضا لازما على الانسان ، لا عبرة فيه بمجال التخصص الدراسى ، ولا عذر حياله بالواجب المعيشى ، ذلك انه ــ فى حقيقة الحال ــ أدخل الى الجانب الانسانى فى الفرد . يبين ــ على التوالى ــ مدى تكافؤ وجوده مع الفهم الطبيعى للامور والتصرف الواقعى ازاء الاحداث الجارية .

محمد سعيد العشماوى

تمهيد

من الامور الشائعة فى أى مجتمع ، ان يسأل شخص شخصا آخر عن عمره كلما اراد ان يحيطه بنظرته ويدقق فى فهمه ، او اذا شاء ـ لسبب أو آخر ـ ان يحسب فكره ويقدر خبراته ، وغالبا ما يهدف السؤال فى هذه الحالات الى ادراك مدى حياة الآخر ، ذلك المدى الذى يقدر عـادة بعدد السنوات والايام التى توالت عليه منذ لحظة الميلاد حتى وقت الاجابة، وهو المدى الذى تقاس به ـ خطأ ـ خبرات الانسان وتجاربه ، كما يحسب عليه ـ تبعا لذلك ـ محصله من الفكر والقدرة ٠

والاجابة على السؤال لا تقنع السائل فى احوال كثيرة ، حين يقع فى احساسه أن المجيب أسن من عدد الأيام التى ذكرها أو أحدث منها ، والأمر فى هذا التحديد يرجع الى مظهر تقاسيم الوجه ، وبالتالى الى الخبرات التى رسمت هذا المظهر ، والأحداث التى شكلت لمساته ٠

وعلى الرغم من أن هذه الاجابة لاتؤدى دائما الغرض المقصود منها، فان السؤال لايزال قائما على الالسن يتردد من حين الى حين، ليثير موجات متتابعة من التساؤل والاســتنكار ثم موجات تليها من تأكيد الاجابة وتبريرها ـ تبعا لظروف الحال ـ برد الامر الى وطأة الاحداث التى عبرهـا الفرد ، او ـ فى الجانب الآخر ـ ببيان استخفافه بهذه الاحداث ، وعدم الاعتداد بما تكون عليه من جسامة الاثر ٠

وأيا ماكان السؤال واجابته، فان ثمة نتيجة هامة تسفر عن ذاتهاـ خلال الحلقات المتصلة بين مظهر الانسان وآثار الاحداث على هذا المظهر ـ مؤداها ان العمر الفردى لايقاس بالايام ، كما وان الفكر لا يحسب **بالوقت** والكفاءة لاتقدر بالساعة ٠

فلو ان وجود الانسان أمر يسهل بالقياس والحساب تحديده تحديدا ثابتا لاخلاف فيه ، لكان شأنه فى ذلك شأن الشيء يختلف ازاءه فينسب الى المقياس • لكن الواقع غير ذلك ، فالانسان ذاتى بمعنى ان كل فرد من البشر يختلف عن غيره اختلافا يسيرا أو كثيرا حتى ليقال ان كل فرد نسيج وحده لايشاركه فى طبيعة كيانه أحد •

وينبنى على استقلال كل فرد بكيان خاص ، أن ينفرد بطابع ذاتى فى عبور الحياة فاعلا ومنفعلا • فبينا يفرط البعض فى ايجابيته فيعبر الحياة باعتداد وثقة ويؤثر فى كل ما يحيط به ثم يترك طابعه على كل شيء ، يفرط البعض الآخر فى هذه الايجابية فيؤثر عليها سلبية ساكنة ويترك الحياة تعبر عليه دون عناية بشأنه او اكتراث به •

وبينا يفضل البعض ان يتحكم فى الاوتار التى تنبعث منها انغام حياته فيحدث توافقا فيما بينها ثم يستخلص لنفسه ايقاعا خاصا يهيئ نوعا من الانسجام بينه وبين الانغام المحيطة به ، يفضل البعض الآخر ان يترك هذه الأوتار وشأنها فلا هو موفق بينها ولا هو متخذ لنفسه اى ايقاع •

وبينا يمتد البعض خارج ذاته رأسيا أو افقيا تعانق احساساته مشاعر الغير وترتوى منها ، ينكمش البعض الآخر داخل ذاته كالقوقعة لايعطى ولا يأخذ الا بقدر ما تفرض عليه الضرورة ذلك •

وبينا يستجيب البعض لاحداث الحياة استجابة تامة فيجيش منها كيانه وتضطرم بها نفسه ويعيش فيها بكل عصب من احساسه ، ينافر الآخر هذه الاحداث فيقيم بينه وبينها حائلا من جمود •

***

تلك انماط من الناس متناقضة تمثل الاطراف القصية للطباع • جانب الى اقصى اليمين وجانب الى اقصى اليسار • على ان الاغلب الاعم من الناس وسط بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء •

وكيفما كان طابع الفرد من المتطرفين أو من المتوسطين — فانه طابع خاص بمعنى انه من المتعذر جدا أن يتطابق معه آخر • بل ان طابع الشخص نفسه غالبا ما يفارقه شيئا فشيئا مع كل حادث يمر به مما يؤدى بالضرورة الى اختلاف طابع الفرد على مسار الاحداث •

وتعنى مغايرة الفرد للآخرين ومفارقته لذاته ، على هذا المفهوم ، ان عبوره للحياة — او عبور الحياة عليه — لايتخذ شكلا محددا ولا يلتزم خطا مستقيما ، بل ان هذا العبور يكون فى حركته أشبه بالتيار ، يرتفع

وينخفض ، ويميل ويعوج ، متأثرا فى ذلك بعوامل كثيرة ، كالضغط والحوائل وقوة المقاومة وحال الصدمات وما اليها .

على أن الفرد فى كل حادث يمر به وفى كل مسلك يتخذه أو قرار ينتهى اليه ، انما يكتسب ما يسمى بالتجربة ، وهى حكم خاص بالفرد ونتيجة يستخلصها لنفسه متأثرا فى ذلك بالعوامل الكثيرة التى أحاطت بهذا الحكم واسهمت فى تكوين الاحداث التى انتهت به .

ومع الاحالة المتبادلة بين الاحداث التى تقع والاحكام التى تستفاد منها ، يرتفع محصل الفرد من الخبرة ، على فرضانه يعرف كيف ومتى وأين يستغل هذه الخبره .

ومن مجموع احداث الانسان وطريقة مجابهتها ومدى انكماشه فيها أو اندفاعه منها وكيفية استجابته لها ، يتميز طابعه ويتموج على سطح الحياة أو فى اعماقها وهذا مايطلق عليه عادة لفظ الوجود .

***

وعلى ذلك فان الوجودية ـ بالنسبة العامة ـ هى كل جهد فكرى يتناول بالشرح والتأصيل وجود الفرد على المعنى السالف بيانه . وهى ـ بالنسبة الخاصة ـ تطلق على الفلسفة الحديثة التى اهتمت بالانسان نفسه دون الفكر والاشياء .

وتاريخ الوجودية من ثم هو العقد الذى ينتظم جميع الافكار التى وضعت أو حاولت أن تضع معنى للوجود الانسانى ، وهو موضوع هذا البحث .

الوجـــود لفظـــاً

الوجود لفظا

من الامور الهامة فى عرض الفكر وتقديره ان تتحدد مفاهيم الالفاظ ومراميها حتى لاتختلط فى الأذهان أو تضطرب عنـــد الفهم ، ذلك أن المجتمعات الحديثة اضطرت ازاء تنوع المعارف وتشعب العلوم الى الضغط على مواردها من الالفاظ ، فى عمليات متتالية من التخريج والتوليد والنحت والاشتقاق تنشىء بها ألفاظا جديدة يمكن التعبير بها عن الجديد من المخترعات والناشىء من الاحوال ٠

واذ كان اللفظ دائما شحنة التعبير ورمز الفكرة، فان تحديده تحديدا تاما أمر لابد منه حتى تنتقل الفكرة من العقل الى العقل انتقالا واضحا ، بانتقال اللفظ خالصا من الالفاظ المشابهة والمعانى القريبة خالصـــا من الالفاظ التى اشتق منها أو تحول عنها .

اللفظ فى اللغات الاوربية :

ففى اللغات الاوربية وأغلبها مشتق من اللغة اللاتينية ، يفيـد لفظ « الوجود » معنى الخروج من الشىء لان تلك هى دلالته فى هذه اللغة ٠ فأصل اللفظ فى اللغة اللاتينية مكون من مقطعين هما Stere.ex والمقطع الاول ex يعنى الخروج ، بينما يعنى المقطع الثانى Stere البقاء فى العالم ٠ وهكذا انتقل اللفظ الى اللغات الاوربية بما يحتويه من شحنة تعبيرية وما يرمز اليه من فكر ٠

فهو فى الانجليزية existence

وهو فى الفرنسية existence .

وهو فى الالمانية existenz

وكلها الفاظ تعنى غير ما تعنيه أفعال الكينونة to be الانجليزيه être الفرنسية ، sein الالمانية · اذ بينما تعنى أفعال الكينونة هذه « وجودا » عاما ، تعنى الالفاظ المشار اليها « وجودا » خاصا هو الوجود الذى أصبح موضوع الفلسفات الوجودية الحديثة بالمعنى الذى بدأه كيركجارد باعتباره الشعور بالوجود شعورا حيا وتحقيق مافيه ·

اللفظ فى اللغة العربية :

وقد يكون من الأوفق لسلامة المقارنة بيان معنى لفظ الوجود فى اللغة العربية لغة البحث · فلفظ « الوجود » فى اللغه العربية يفيد اصلا معنى الحضور ، فيقال ان فلانا موجود بمعنى انه حاضر · وهذا اللفظ يقابل — فى باب المتناقضات — لفظ الغياب ، ويدل على معنى مضاد لمعنى هذا اللفظ تماما .

وقد نقل اللفظ الى معنى آخر هو الكون أو العالم · فأصبح لفظ « الوجود » رمزا اجتماعيا للكون بكل ما فيه ، باعتبار أن الكون يفيد دائما وفى أى مفهوم معنى الحضور أى المثول وعدم الغياب عن البصر أو البصيرة · ثم نقل اللفظ الى الفرد فلم يعد مقصورا على الكون · ولعل مرد ذلك أن الانسان كان دائما فى الفكر البشرى رمزا للكون ودليلا على قيامه· ومن جانب آخر فان المثول وعدم الغياب ينصرفان بادىء ذى بدء الى الفرد حين يراد اثبات حضوره ومن ثم يقال انه موجود .

وهكذا أصبح لفظ « الوجود » فى اللغة العربية معنى على الكون من ناحية ، وتعبيرا عن عالم الفرد الخاص من ناحية ثانية .

وعندما يطلق اللفظ فانه يفيد هذا المعنى وذلك ما لم يتحدد بما يدل عليه من سياق الحديث أو يلحق بلفظ آخر يخصصه، كأن يقال: الوجود العام دلالة على الكون ، والوجود الخاص أو الوجود الفردى دلالة على عالم الفرد· ومن مقارنة اللفظ ومعانيه فى اللغة العربية باللغات الاوربية يتضح أن هذه اللغات استعملت ألفاظ existence الانجليزية ، existance الفرنسية ، existenz الالمانية بمعنى الوجود الفردى ، أى عالم الفرد الخاص ، حتى يظهر الفرق بينه وبين فعل الكينونة فى لغات هذه الالفاظ·

فكان الوجود لفظا ، فى اللغات الاوربية يختلط — الى حد ما — بالكينونة المطلقة ، أما فى اللغة العربية فلا اختلاط ولا شبهة اذ ينصرف

لفظ الوجود فيها الى العالم كله أو الى عالم الفرد ، وكلاهما من طبيعة واحدة .

***

ويستفاد من ذلك أن لفظ الوجود، في اللغة العربية ، بدلالته الكلية أو الجزئية يتضمن نفى الاستغلاق ، ويفيد معنى الاحالة المتبادلة بين الجزئى والكلى أى بين الفرد والعالم ، فوجود الفرد ، فى هذه اللغة ، يعنى حضوره فى العالم ، ووجود الكون يعنى حضوره بازاء الفرد . أما الذات المغلقة التى لا احالة بينها وبين الوجود الكلى ، فهى ذات وهمية لا يمكن أن تكون، وبالتالى لا يمكن أن توجد .

هذا المعنى بذاته هو المستفاد من اللفظ المقابل للفظ الوجود فى اللغات الاوربية مع فارق فى تسلسل الفهم ، اذ بدأ فى اللغة العربية باثبات الحضور أمام الغير ، بينما بدأ فى اللغات الأوربية ببيان الخروج الى العالم أو الخروج من الذات ؛ وهو فارق قد يكون لطبيعة حياة الأولين أثر فيه اذ من المسلم به أن الفرد العادي في حضارات الشرق الأوسط قديما كان أكثر من غيره وثوقا بذاته واحساسا بوجوده . أما على غير هذا المعنى فلا يكون ثمة وجود .. بل كينونة وهى الخروج الطبيعى الى الكون ، أو انيه ، وهو الوجود المتحقق .

الوجود والكينونة :

والفارق بين الكينونة والوجود أن اللفظ الأول يفيد معنى الخروج الى الكون عند الولادة فى ذات حية لديها قابلية التفاعل مع هذا الكون وقدراته . فاذا بدأ التفاعل بصورة أو بأخرى بدأ الوجود ، وهو من ثم لابد أن يستمر . وقد تنصرف الكينونة ـ فضلا عن ذلك ـ الى القوة الذاتية الكاملة ، التى فاض عنها الوجود أى الوجود المطلق ، وهذا الوجود المطلق يشمل وجود الصورة أو الماهية ، أى الوجود الذى لا يتفاعل مع غيره ولا تسرى عليه أوضاع الاحالة المتبادلة بينه وبين الغير، كما يشمل ـ من جانب آخر ـ الوجود بالمعنى المقابل أى الوجود المتفاعل فى استمرار مع كل شئ .

الوجود والانية :

أما الفارق بين الانية والوجود فهو فارق ما بين المبدأ وتطبيقه . فالانية فى الاصطلاح العربى بمعنى « الذات » أو « المبدأ الفردى » الذى تتميز به ذات معينة عن غيرها من الذوات، فكأنها تفيد معنى تحقيق الوجود فى مرتبة ذاتية ، أو بمعنى أوضح تدل على شخصية الفرد بعد ما تفاعل مع الوجود محققا ذاته على نمط أو آخر .

الوجود تعبير الحياة

الوجود تعبير الحياة (١)

الوجود هو مايميز الانسان عن غيره من المخلوقات .

فالحيوانات والطيور والزواحف والحسرات والنباتات وما اليهاتعيش على الارض بخصائص تكفل دوامها ، عن طريق الاستجابة المباشرة الى الحاح أجهزة تدفع الى طلب الطعام والشراب والجنس ، وتهيىء للدفاع عن النفس والتشبث بغريزة الحياة .

أما الانســان فانه يتميز عن هذه المخلوقات بتعقــد جهازه العصبى ورحابة حياته النفسية ، مما يجعله غير مغلق أمام الأحداث وغير ساكن . فنفسيته الرحبــة تفجر الاحاسيس ثم تركمهــا شيئا فشيئا حتى تنداح معها خارج كيانه فى تشوف الى الحركة والانطلاق . ويتلقف جهازه العصبى هذه الشحنات من الطاقة ثم يحولها الى وعى يصقل الشعور ويثير الفكر .

ويظل الوعى متحفزا على الشعور نابضا فى الفكر ،كما لو كانت ثمة قطع من ظلام يثقل عليها الضغط ، حتى يمتد الشعور أو ينطلق الفكر فى تعبير عن الذات يفرغ المشاعر ويذيب الأفــكار فاذا بالظلام يتبدد سدفة بعد سدفة ، والثقل ينزاح حملا اثر حمل ازاء نور الوجدان المشرق وسنا التعبير الجديد .

---

(١) لسهولة المتابعة حجبنا عن النشر في هذا المجال فصلا عن تاريخية الوجــود مكانه في السياق قبل هذا الفصل مباشرة ، وهو يتضمن تحــديد الفارق بين التطور والتاريخ وكيف أن التطور يصدق على أمور الطبيعه التى تندثر معالمها في مراحل التقدم بينما يفيد التاريخ معنى بقاء مراحل التقدم هذه في بناء فكرى واحد .

الوجود تعبير جديد :

بهذا يكون الوجود دائما تعبيرا جديدا فى الحياة ، غيرَ أن هذا التعبير يختلف من انسان الى انسان ، كما أنه اختلف على مدى طريق طويل من الكفاح البشرى عبر التاريخ ٠

وبينما يرجع اختلاف فرد عن آخر الى الفروق الطبيعية والاجتماعية بين هذا وذاك فى تعبير كل عن ذاته ، يدور الاختلاف على مسار التـاريخ البشرى الى تقدم الانسان ــ جيلا بعد جيل ــ فى مدارك الرقى والتقـدم وبالتالى فى طرائق التعبير عن الذات ٠

مناحى التعبير :

فالانسان فى بدء مدارج الحضـاره يعبر عن ذاته تعبيرا غير مباشر يظهر فيما يسمى بالفنون التشكيلية كالنحت والرسم والزخرفة ٠ وهو ــ بذلك ــ يخلخل الضغط النفسى فى اتجاهات فنيـة ترهف من الحس وتصفو بالذوق ، دون أن ينقـل الى غيره احساساته الحقيقيـة أثناء أداء العمل الفنى ، أو دافعه الى هذا العمل وقصده منه ٠

ثم هو فى أول مراقى الحضارة يعبر عن ذاته تعبيرا مبـاشرا ٠ فهو حينذاك يكون قد عرف الفنون التعبيرية ، ومنها الشعر الذى يعد بالنسبة اليه أهم وسائل التعبـير عن ذاته ، ومن ثم تنتشر حركته النفسية فى القصائد والملاحم تنفس عن المشـاعر من جانب ، وتعبر عن ذاتيـة الفرد والمجتمع من جانب آخـر ٠ فكأن الفنون التعبيرية عموما وعلى الأخص ما أفرغ منها فى قوالب الالفاظ ، تؤدى دورا مزدوجا فى الغرض المقصـود منهـا ٠ وهى ــ فضلا عن ذلك ــ تنقـل الى الغير فى كثـير من الاحـوال الاحساسات الحقيقية التى جاشت بها نفس الفنان والنبضات الحيـة التى فارت منها أفكاره ٠

والانسان على مشارف القمم الحضارية يختط لنفسه سبيلين للتعبير عن ذاته ٠ أحدهما سبيل تنتهجه الفنون المختلفة ، وثانيهما عقلى يهيمن عليه فكره وتقديره ٠ وهو حينئذ يكون قد عرف التأمل طريقـا يكتنه به ذاته ، وعثر على وسـيلة يحسن بمقتضاها التعبير عن هـذه الذات تعبيرا واضحا دقيقا لا يأتيه الخلط ولا يؤثر عليه ٠

***

تلك هى المراحل المختلفة التى تحدد مناهج وخطوط الصعود الذاتى

للانسان الى حب يستشرف تطوره جيلا جيلا وفردا فردا ، وهى جميعا ترسم للانســان صورة حقيقيــة تحالف شتى المخلوفات التى تشــاركه المعمورة ·

الانسان وحده هو الذى يحيا ، أما المحلوقات الأخرى فانها تعيش :

والفارق بين مجرد العيش والحياة هو محاولة التعبير عن الذات فى أى منحى من مناحى التعبير فنيا كان أو فكريا ·

الوجود السامى :

وثم وسيلة أخرى للتعبير نعد بالنسبة الى الوسائل الأخرى أكثرها دلالة على الذاتية واتصالا بحركة الواقع · ذلك أن التعبير الدال على الوجود لا يقتصر على فئات من الفنيين وفئات من المفكرين بما تعنيه كلمتا الفنــان والمفكر من تخصص فى العمل أو ذيوعه وانتشاره ، بل ان هــذا التعبير بصورتيه عام شامل متسرب الى كل الأفراد · فبينما يوجد من يعبر عن ذاته أو ذات المجتمع فى فن ظاهر أو علم ذائع ، يوجد ــ كذلك ــ من يحيا فنه أو يحيا علمه ·

فثم أشخاص كثيرون من أفراد المجتمعات جميعــا ، يحيون وجودهم حياة كاملة فيتعمقون الحياة فى شريحة منها او قطاع، ثم يستخلصون لأنفسهم أحكاما عامة تتغير وتتبلور داخل المجتمع حتى تأتى على لسانه فى الحكم الشعبية التى تتردد فى الأمثال ، أو تنتفض فى كيانه على هيئــة قصص رمزية وأساطير ، أو يتغنى بهــــا وجدانه فيما يعرف بالتراث الشعبى من الاغانى والالحان « الفولكلور » ·

هذه الأمثــال والقصص والأساطير والأغانى تعــد خلاصات للتعبير الشخصى عن الذات ، وهو تعبير يختلف عن التعبيرين الفنى والفكرى فى أنه لا يقتضى تخصص الفرد للتعبير أو الرهبنة فى معبده ، بل انه قديكون نتيجةلاحتكاك دائم معءجلة الحياة الجارية يولد برقا خاطفا يومض فىالذهن ثم ينعكس على القول الدارج فيصبح من تراث الجماعة دون أن يعرف على وجه التحديد اسم القائل أو الملحن أو الحاكى الاول ·

فكأن الوجود الفردى الراقى لا بد أن يتخذ لنفســه مظهرا للتعبير عن ذاته أو كما يقال عادة لاثبات وجوده · وهذا المظهر يكون فى الصورة

المحددة مظهرا فنيا أو فكريا كما يكون فى الصورة المثلى مظهرا شخصيا على ما وضح بيانه ٠

أما الغفل من الناس والهمل منهم ، فانهم يكتفون بتعبير غيرهم عن الذات البشرية دون أن يكلفوا أنفسهم جهـد التعبير أو محـاولته ٠ وهم ــ بذلك ــ يتفيأون وجود غيرهم حين يصفو ذوقهم من فنه أو يرقى فكرهم من علمه ، أو تتوهج حياتهم بقبس منه مثلا وقيمة خالدة ٠

***

الوجود في الفكر القديم

الوجود فى الفكر القديم

طالما أن الوجود بالمعنى العام يعتبر أسلوبا للحيـاة فلا مراء والأمر كذلك فى أن تكون ثمة مشـابهات ومخالفات بين الاسلوب والحيـاة ، أو بمعنى آخر بين الوجود الفردى والوجود العام ٠

وبمنأى عن محيط الدين من جانب واطار الأفكار المجردة من جانب آخر حيث يدور منهاج البحث على لفظى الجبر والاختيار مفهوما وأثرا ، فانه مما لاشك فيه أن الفرد الواعى فى وجوده الحى أو ماشابه ذلك الوجود يتخذ لنفسه موقفا ازاء أوضاع الحياة وأفكارها ٠

وهو يحدد موقفه دائما فى كل حركة له أو سكنة ، سيان فى ذلك أن يكون ايجابيا فى سلوكه أو سلبيا ، قبل الوضع والفكرة أم رفضها ٠ ذلك أن الحركة والسكنة والقبول والرفض كلها تكون مع شىء أو عليه ٠

فالسكون فى هذا الصدد كالحركة ، والرفض كالقبول يحدد المراكز ويخطط المواقف ، اذ أن السلب اضافة للايجاب يفترضه ثم ينحيه جانبا أى يعترف به ثم يعرض عنه ، فهو فى حقيقته وضع مضاف الى الوضع الأول ٠

أما الفرد الغافل راكد الوجود شبه الموات ، فان ارتضاءه أوضاعه واسقاط جانب الاختيار بما فيه من فحص وتمحيص وتغليب وانتقـاء ، يعد منه تسليما بالحال وقبولا له ، طالما كان فى مكنته أن يبدل حالا بحال — أو يحاول على الأقل ذلك — ولم يفعل ٠

ومفاد ذلك أن ثمة حلقة مفرغة بين الاسلوب والحيـاة توالى الاحالة بين الاثنين ، وتضيف النتـائج والخبرات الى كل جانب ، ومن ثم ترفع المحصل وتدفعه على الدوام فى مفارقة لوضعه وعلو عليه ، وعلى مدار التاريخ نلاحظ تلك الاحاطة بكل ما لها من آثار فى تيار الفكر البشرى ٠

قدماء المصريين

الأسس الحضارية :

كانت للمصريين القدماء حضارة ضخمة شـــاملة قامت على الفطرة الاولى ونبعت من وجودهم الذاتى ، ثم امتدت على آفاق الحياة وانتشرت عبر الأحداث فى قدرة وأصالة وتميز

واذ كانت هذه الحضارة ـ فى التقدير العادل ـ أصل الحضارات الأخرى جميعا ، فان استكناه خصائصها العامة والتقاط نظرتها الى طبيعة الوجود أمر لا معدى عنه لتتبع التيار الصادق للفكر البشرى كله ٠

وثم ما يعوق الجهد فى هذا الصدد، ذلك أن الخط الحضارى للمصريين القدماء يختلف عن كافة الخطوط الحضارية التى سار فيها التقدم الانسانى عبر الأمكنة والأزمنـة المختلفة ، وعلى الأخص هذا الخط الذى تجرى فيـه حضارة اليوم ٠ ومفاد التبـاين بين حضارة المصريين وشتى الحضـارات الاخرى أن تظل تلك الحضارة غريبة عن غيرها خاصة أنه لم يتبع فى حفظ أصولها وصيانة سرها ما يتبع فى غيرها من حضـارات ، وانما غلبت فى ذلك طريقة التلقين الفردى ، يتوارثها خالف عن سالف ، وهو أمر أدى عندما حل جيل متلاف الى تبديد الاصول مع كل عقل ذهب والى طى السر فى النفوس الثاوية ٠

وليس من بد مع تقدير ذلك أن يستقصى الفكر جوانبه أو يستبطن ذاته ، ليصل الى تلك الأسس التى نهض عليها الوجود المصرى ثم شكل بها وعى التاريخ ٠

فطرة الحضارة :

وأظهر ما يلاحظ فى هذا المجال ما سبق به البيـان من أن حضارة المصريين قامت على الفطـرة الأولى للبشرية ، ومن ثم كانت ـ دون باقى الحضارات ـ أقربها الى البداهة وأبعدها عن التعقيد ٠

لقد بدأ نمو الحضارة المصرية فى عصور موغلة فىالقدم تكاد أن تتماس مع عهد الانسان البدائى • ثم نمت شيئا فشيئا خلال نمو الذات البشرية على ضفاف النيل ، حتى بلغت شأوا عاليا من التقدم فى شكل مدنية راقية ضمت فروع الحياة كافة •

وكانت هذه الدوحة الحضارية تعود الى أصل واحد بدأ به الانبثاق الاول • ومما لاشك فيه أن هذا الانبثاق – فى مهد الانسانية وطفولة البشر – كان وليد مجاهدة شـديدة للفجاجة الذاتية ومعـاناة فذة للظلام النفسى •

ولا بد أن كانت لدى المصريين الاول خصائص فطرية راقية تفاعلت مع الظروف الطبيعية والاوضـاع الاجتماعيـة ، فظهرت بها ذاتيـة مميزة سبقت بنموها التاريخ فلم يلحظ عليها المراحل بل رآها مكتملة النماء •

ومما سـاعد على نقاء هـذه الفطرة وعزلها عن العوامل المجتلبـة أن الطبيعة – كمـا لو كانت تعنى التجربة – عملت على انعزال وادى النيـل بعيدا عن الهجرات الجماعية والغزو الاجنبى فترة تربو على ثلاثة آلاف عام كانت كافية لظهور الذاتية الفردية والاجتماعية ثم استقرارها على الملامح الثابتة التى عرفت بها فيما بعد •

وفى هذه العزلة بشقيها لم يحدث للفكر المصرى أى تلاقح أوتداخل مع فـكر آخر ، ولا حدث بينه وبين غيره تجـاوب قط ، وبذا ظل فى كل مناحيه على صفاء الفطرة السليمة ونقاء الذات الواعية •

وحدة الحضارة :

ومن جماع هاتين الخاصيتين كان الفهم المصرى عمـوما ينسم بوحدة بسيطة تعلو على التجزئ والتركيب وترقى عنالتخصيص والتعميم ، لقد كان هذا الفهم – فى التعبير الوضعى – تميزا من وعىخاص لايجردالفكر ولا يغلب العمل ، وانما يرى الواقع فى مجال الفهم نسقا لم يحلله انكسار الادراك الى أفكار الطيف • ومفاد ذلك أن واقع الأمر لم يكن فى حضـارة المصريين القدماء متحللا الى شظايا متناثرة من أجم الفـكر بدعوى التمعن أو زعم التخصص ، لكنه كان طوال مسرى الحضـارة وحتى الفهم الفردى وحدة واحدة لاينلمها قصور ولا بشتتها تجزئ • فكأنما كان لب هـذا الفهم فى اصالته أشبه ما يكون بالضوء قبل أن تكسره السحب الى عديد من ألوان الطيف المعروفة •

الوعى الذاتى :

ولا غرو كانت بساطة الفهم هذه سببا فى تركيز الجهد الانسانى على بؤرة واحدة بدلا من تبديده فى مناح شتى. وكان الطبيعى مع صحو الفكر وشدة الحيوية أن تكون البؤرة ذات الانسان ، ومن هنا بدأ صراع المصرى مع نفسه استخلاصا لذاته • وخلال المجاهدة الشديدة والمعاناة الدائمة خلص للمصرى وجود راق عرم ، شديد الاحساس بطبيعته وقدراته •

على أن الأمور لم تصل الى هذه النتائج الا بعد أن عبرت الواقع فى تجارب فردية وجماعية ، اتخذت فى النهاية مسلك الخبرات التى امتصتها عوامل الوراثة ثم ظلت تركمها على الوجدان جيلا بعد جيل حتى أصبح التجريب طابع الحضارة المصرية •

وربما دق على الفكر الحديث ، لفظا وادراكا ، أن يحيط بالمعنى المقصود من التجريب فى هذا المفهوم • لكنه على نحو من التقريب يفيد معنى اليقظة والتنبه الى الواقع الحى قصد الحصول على نتائج منظمة ، تتخذ - مع التأصيل - شكل علم وضعى ، نسجه الوجود من واقعه ، ولم يفرضه عليه جموح ذهنى فى صورة علم موضوع •

واقعية التفكير :

وهكذا تضافرت فى الفكر المصرى القديم وحدة الفهم مع قواعد التجريب فكانت سببا فى اعتبار الواقع ككل بداية ونهاية ومركزا ومدارا وسبيلا وغاية ، كما كانت سببا فى تقديره تقديرا كاملا بوصفه فيضا ذاتيا للطاقات الخلاقة ، ومجاشا طبيعيا للتفاعل الحيوى • فمن الواقع الحى فى هذا التقدير تفتحت براعم الشخصيات وتجلت المثل والقيم وظهرت القدرات والمواهب ، وبالواقع الحى فى نتائجه كان المحك وكان الحكم .

وبهذا تناسج الشىء ونتيجته، وتوشجت الأمور بأغراضها، وتزاوجت الماديات والمعانى فى فهم طبيعى لا ابتسار فيه ولا اعتساف •

نشوء المثل والقيم :

ولقد كان حتما أن تنشأ لدى المصرى خلال كبد الصراع قيم موضوعية ومثل واقعية ، نتيجة طبيعية لشدة الحساسية الذاتية ووحدة الفهم التجريبى • ذلك أن مسالك الحياة تتنوع وتتعدد قبل أن تلتقى عند الأغراض

القريبة والغايات البعيدة . ومن ثم كان الاتفاق على فضل مسلك وسوء آخر منوطا بالمضار التى قد يلحقها بالغير والمعـــدل بين الجهد والمكسب ومدى انتشار الفوائد الناتجة عنه. وبتقدير الافعال على هذه المعاييرافترقت بعضها عن البعض وتميزت فبان الخير وبان الشر .

ومن تواتر التقدير وثبات الاجماع ، ظهرت القيم الخلقيـة على نحو شعور حاد بالوصاية النفسية كان أكثر وضوحا فى مصر القديمة منه فى أى مكان آخر . ثم كانت قوة الانسان المنظمة فى الخارج على شكل دولة وقوة الوعى الذاتى المتفتح بالداخل فى صورة محاسـبه سببا فى ظهور الجزاء ، ثم ارتباطه بنتائج الافعال توافقا مع طبيعة الفهم .

التشخيص الفكرى :

واذ كان وجود المصرى واقعا ، وكانت مثله كذلك نتاج الواقع ، فقد صار الواقع على معنى الوحدة التجريبية هو الســمة المميزة للوجود المصرى عامة ، بحيث كان من المتعـذر على هـذا الوجود أن يظهر فى غير واقع .

فالمصرى القديم لم يكن يفكر فى الأرقام والاعداد بعيدا عن الغرض المقصودمنها دونأن يحيط فكره بالمسائل المعدودة والاشياءالمرقومة . وهو كذلك لم يكن يعرف سرقة بل سارقا ، ولم يتصور فقرا بل رجلا فقيرا .

وتبعا لهذا الفهم لم يكن من الممكن تصور مثال للانسان ينعزل فى السماء بعيدا عن مجاله الطبيعى ، كما لم يكن من الممكن تمثل صفة تتجرد من الموصوف وتستقل عنـه . فالانســان انسان بقيـامه على الأرض فى ظروفه وقدراته ومصيره، مما يعنى أنه اذا انحرفت أىمن هذه ولو قليلا أن يصبح مخلوقا آخر ولبسالانسان. والصفة صفة متى كانت فعلا أو تصرفا أيد وجهة نظر أو خالفها ، فاذا لم تتخذ شكلا من الواقع لم تكن .

وهكذا كان الواقع فى الفهم المصرى شـــيئا متفردا مستقلا بذاته فلا هو محاكاة لمثل ولا هو محاولة وصول الى مثل . ومن جانب آخر فانه ليس فوضى ضاربة وليس آلية محتومة . لقد كان الواقع فى حقيقة هـذا الفهم وعلى ما وضح من مفاهيمـه تجربة واعية ، تنبع منهـا المثل والقيم فتقدس بعضها وتلعن الاخرى ، تواؤما أو تنافرا مع طبيعتها الجارية .

على أن ذلك لم يكن جنوحا عن صحيح الفـكر وقويمه تبعا للمألوف من معاييرنا المعاصرة تلك التى اعتادت أن تسقط على الوجود موازينليست منه ، وانما كان فى حقيقته أهم خصائص الخط الحضـارى الذى تميزت به

مصر القديمة وأوضح الأسس التى نهض عليها بناؤها العقلى ٠ وهو اتجاه لا يعرف غير الواقع أمرا ولا يتخذ الا الوجود فكرا ٠

طابع الوجود :

وفى الاجيال الاولى لم يكن من الممكن فصل الوجود الفردى عن هذه الافكار واستقصاء أثرها عليه ، لان هذه الافكار كانت طبيعته ونتاجه ٠ وعندما استقرت بعد ذلك فى الوجدان القومى وأصبحت سمته وطابعه، كان من المجتمع أن تتفاعل مع الوجود فردا وجماعة ثم تشكل له قيمه ، وبالتالى منهجه وأسلوبه ، فاذا بهذا الوجود فى مفهومها يعتبر كذلك تجربة واعية ٠

وتظهر فكرة التجربة واضحة بشمولها الواسع وأثرها الحتمى ، من اسقاطها على الآلهة التى حظيت مدى الامتداد الحضارى على شعبية واسعة النفوذ لدى الاجيال المتعاقبة فى مصر القديمة وهى أوزوريس وايزيس وحورس ٠

وتقول الأسطورة أن اوزوريس كان الها حاكما عندما حقد عليه شقيقه ست ، وبمؤامرة خسيسة قضى عليه ثم دفن جثمانه بعيدا ٠ ولما افتقدت ايزيس زوجها اوزوريس وعلمت نبأ مقتله بكت وناحت ثم ظلت تبحث عن جثمانه زمنا حتى عثرت عليه ٠ وبمعاونة اله خاص حملت منه وأنجبت ابنهما حورس ٠ وبعد أن شب قامت بينه وبين عمه ست معارك طويلة انتهت باحتكامهما الى الآلهة ٠ واذ ذاك عمل حورس على احياء اوزوريس الذى حوكم أمام الآلهة ثم برىء٠ وقضت الآلهة فى شأن حورس بأحقيته فى عرش والده ، فصار هو ملك مملكة الاحياء ، بينما صار أوزوريس ملكا لمملكة الموتى «مملكة الغرب» ٠

فكأن الفكر المصرى لم يستطع أن يتصور سمو الآلهة دون واقع يفيد معنى التجربة ويدل على السبق فى اختبار الذات ٠ وبالتجربة وحدها صار اوزوريس مثلا أعلى للاستقامة « يفعلها ويعيش فيها » ، كما أصبحت ايزيس رمزا للوفاء والاخلاص ، وعد حورس تقييما ثابتا للكفاح والنصر٠

فما من ذات خيرة بغير دليل واقع ، وما من صفة طيبة دون اثبات فعلى ٠ والآلهة التى ارتفعت فى الفهم المصرى القديم أعلاما على صفات معينة ، لم تنشأ كذلك بصفاتها تلك وانما أصبحت ولها الصدارة ، بعد أن أثبتت على نحو من تجريب حادث انها أهل لهذا الأمر وكفء للبقاء عليه ٠

فكأنما كانت طبيعة الفكر المصرى وحده هى التى أدت الى تعدد الآلهة ــ فى ديانتهم ــ مع احساسهم العميق بوجود اله عام يهيمن على الكون

كله ، ثم كانت هذه الطبيعة ذاتها سببا فى جلاء الآلهة المجربة وظهورها ، على حين عام الاله المجرد وبعد ، حتى لقد قيل : ان المصرى لا يعتقد ولكنه يمسك بيديه ٠

وفى هذا الفهم المحدد ، كان الوجود الفردى واضحا وكانت المثل والقيم ظاهرة ثابتة ٠ وكان المفهوم أن هذا الوجود تجربة تبتلى بها الروح فى حياة أرضية تصبح فيها بالظروف والقدرة والمصير انسانا ، وعليها فى هذه الحياة خلال صراع دائم أن تبين مدى صلاحيتها وبالتالى ما اذا كانت تستحق على ما فعلت ثوابا أو عقابا ٠٠٠٠ تماما كما حدث مع المثل المقصودة بأوزوريس وايزيس وحورس ٠

الجزاء الأخروى :

وسواء كانت فكرة الجزاء الأخروى فيض احساس بحقيقة الحال أو كانت فى تقدير آخر خلقا غير شعورى للقيم الخاصة ، فانها فضلا عن دلالة الوصاية النفسية والنضج الذاتى نعتبر النسق المتمم للتجربة ، وبها كان ميزان الوجود وضابطه ٠ ذلك أن ما يحد وجودا ما من ظروف وقدرة ومصير يختلف عما يحد وجودا غيره اختلافا يسيرا أو كبيرا ٠ يضاف الى هذا ان الارواح التى تتعرض للتجربة ــ بلا شك وحتى تكون للتجربة معنى ومغزى ــ تمثل طاقات مختلفة ومستويات متفاوتة ٠ ومن هذا السبب وذاك لا بد أن تتباين وجهات النظر الى المثل والقيم وتقديرها الطبيعى بالنظر الى المصلحة الفردية وتحقيق الرغائب الخاصة ٠ ومن ناحية أخرى فان منطق التبرير الذى لا بد أن ينبت على الجموح النفسى ومقدرة الانسان على ستر بعض أفعاله ، يتضافران معا ليبعداه عن قبلة المجموع ٠ وليس من سبيل الى الزام الجميع منهجا موحدا يحقق صالح الفرد وصوالح الجماعة الا برد أفعالهم الى سلطة عليا تقومها تقييما صحيحا بغير أن يعرف الانسان سبيلا الى المواربة منها ٠

معالم الوجود :

وليست الخطوة التالية فى هذا التفكير الواقعى غير أمر واحد ، أن يستقر سلطان الضمير على صائب الحكم ان رهبة وان رغبة ، حتى يصبح بالثبات والتحديد ميزان الاله فى تقدير أفعال الغير ، ومن هنا أجرى على لسان الميت عند حسابه تعبير يفيد هذا المعنى ، يقرر بمقتضاه ــ زهوا ــ انه « **موازين رع ، التى بها يزن الصدق (أو الاستقامة)** » ٠

وكان الجزاء على هـذا الأمر خلود النفس فى حياة أبدية ٠ ثم كان الأكثر من ذلك ، امكان صيرورة الفرد الها فى عالم الموتى كمـا هو شأن أوزوريس ، اذ جاء فى كتاب الموتى ((**أما من يأتى الى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكون مثل الله ويسير حرا طليقا كسادة الأبدية**)) ٠

واذ كان الظن فى الفكر المصرى أن الميت سوف يصحو ثانية عـلى نحو ما بعث أوزوريس للحياة من جديد ، لا على شكل شبح خيالى وانما فى بعث مجسد ، فقد كان جزاء التقوى اشباعا حقيقيا لرغبة النفس فى التغلب على الموت وطموحها الى الخلود والبقاء ٠

وعلى عكس الانسان ثابت الميزان وجزائه ، يكون هذا الذى تضطرب موازينه، حين يسيطر عليهالهوى وتتغلب الاثرة فيتحول الى كاره للبشر تجد فيه عدم العدالة الاجتماعية تعبيرا لها فى صورة انسـان استبد به اليأس يدل بمسلكه على يأسه وأسبابه .

فكأن الفكر المصرى القديم فى استيعاب للواقع وادراك لمعنى الوجود قد حددالهدف والمعالم، ثم ثبتها على دعائم واضحة تتسم معفكرهالتجريبى٠ فهو لم ير الها مجردا وانما آلهة واقعية ، ولم يعرف عدالة وفســادا باللفظ ولكن عرف مجتمعا عادلا ومجتمعا فاسدا .

وبينما كان أوزوريس ــ بيقين التجربة ــ مثالا للخير والحق ، كان مثال الشر والضلال « ست » شقيق أوزوريس الذى افتأت على حقه وتآمر عليه ٠ وكان الفرد فى خضم هـذا الفـكر وبالنظر الى فعله وتصرفه اما « أوزوريس » الحق الخير ، واما « ست » الشرير الضال ٠

وبهذه الواقعية الحادة لم يكن من الممكن أن يتساءل انسان : ماالحق وما الشر ؟ مثلما حدث فيما بعد ــبعد أربعين قرنا من ظهور هذه الافكار ــ حين وقف السيد المسيح أمام الحـاكم الرومانى يقرر أنه جاء يشهد للحق فسأله هذا فى استنكار : وما هو الحق ؟ ٠

ان الحق ــ فى الفهم المصرى ــ كان فعل أوزوريس ، والبـاطل كان فعل ست ، والانسان بين الاثنين حر فى اختبار ما يريد مع اليقين التـام بأن « الحق يبقى والباطل يزهق » هذا الى فناء وذاك الى خلود ٠

أثر الوجود :

والفارق بين هذا الفكر وغيره ليس مما يمكن التجاوز عنه بل انه فارق أساسي بعيد الشقة ، يؤدى فى النتائج الى آثار غائرة تكاد من شدة التفاوت أن تعد مفرق نوع انسانى عن نوع آخر ، لـكل منهما خصائصه ممثلة فى الوجود العام وفى الوجود الفردى على حد سواء ٠

ويكفى لتصور هذا المعنى أن ندرك مدى غرابة الأثر المدنى والحضارى للمصريين القدماء عن فهمنا المعاصر برغم ما نبذله هذا الفهم ونبذله للتعرف على الأسس المدنية والأصول الحضارية فى شتى العصور ٠ أما فى الجانب الانسانى فان تصور المعنى يقتضى تصور بناء فكرى يقوم على غير الأسس التى تشيد البناء الفكرى للحضارات المختلفة ، وعلى الاخص حضارة العصر الحديث ٠

لقد كان المصرى القديم ــ خلافا لغيره فى الحضارات الأخرى ونتيجة لذاتية مفاهيمه ــ يبنى وجوده على الاستمرار الطلق فى تقدير يؤمن بانبثاق الحياة من الحياة ، وطفور الوجود من الوجود بمعنى اعتباره كواقع متكامل خلية فعالة فى مجالى الكون ، يجرى بها تياره الحيوى، منذ بدء وجوده حتى منتهاه فى مسئولية تامة ووعى مطلق ٠

وكان هذا الايمان سببا أو نتيجة للايمان بأن الاله أصـــل كل شىء وان كل شىء صدر عنه ٠ فالآلهة الواقعة صدرت عنه أولا ، ثم بعـــد ذلك خرجت الأشياء منها ، الماء من أعضاء أوزوريس ، والهواء من أعضاء آمون، واللبن من أعضاء حاتحور ٠٠٠٠٠ وهكذا ٠

وعلى هذا النسق ، يصدر الوجود الفردى عن الاله ، ثم تنبثق منـه الحياة الدنيا ثم تتفجر منه حياة أخرى ٠٠٠٠ تباعا تباعا ، فى فيوض ذاتية متتالية ٠

غاية الوجود :

وهكذا انفتح الوجود الفردى ، فلم يعد مغلقا على صـــاحبه يدور به ــ ان صعودا وان هبوطا ــ على لولب الحياة الدنيا ، ثم يلحقه العدم فيتبدد بلا اثر ولا عودة ٠ لقد كان الوجود عند قدماء المصريين ونتيجة لحضارتهم الحية ، وجودا ممتدا الى ما لا نهاية ، يبدأ فيما قبل الحياة ، ثم يسقط فى وهدة الحياة بعد ذلك ، ثم يتـــابع سيره الى ما بعد الحيـــاة ، خلال حيوات متعددة ، تنتهى به جميعا الى مجازاته عن التجربة ــ ان توابا اذا أفلح فيها ، وان عقابا اذا فشـل .

وبهذا يكون المصريون أول من عرف الخلود وأصله بفطرة سـليمة ، كما كانوا كذلك أول من جعل للجزاء الأخروى حكمة سامية ، ثم تمثـلوا كيفية الجزاء ــ على عدل التقدير ــ فى جنة النعيم أو فى نار الجحيم ٠

ولم يكن بد أمام هذه الأفكار ، أن يزدهر الوجود الفردى ــ وهو فى تقديرها تجربة واعية ــ فاذا به يصبح جهدا دائما الى حياة أفضل ومن

ثم الى نعيم الخلود · ولم يلبث هذا الوجود أن أصبح يعـد نفسه للجزاء عن التجربة باعتباره غاية ، فتحول بكل جهده ونشاطه الى الاعداد لذلك ، واذا بأجمل آثاره وأرقى علومه وفنونه ترصد لهـذا الغرض حيث أقيمت الأهرام والتماثيل والمعابد ·

وسواء أكانت هذه الافكار حقائق واقعة أم كانت وهمـا وتخيلا ، فقد كان من شانها ان ازدهر الوجود وحسبها ان كان ذلك . فمـا ان رسخت فى الوجدان المصرى حتى تجـذر عليهـا الوجود وتفرع ، فـكانت ـ فى حد ذاتها ـ كافية لكى ترسم للوجود طريقه ومن ثم تعين معالم هذا الطريق ، ولهـذا لم تتنـاول ديانة قدماء المصريين تحديد بيان بالاخـلاق المرجوة أو رسـم نهج للفضائل المطلوبة ، اكتفـاء بآثار فـكرة التجـربة وانعكاساتها على الوجود الفردى ، وما يؤدى اليه ذلك من ترك الحرية للفرد كيما يعانى التجربة بما يتراءى له ، فيعبر الحياة على أى مركب يشاء طالما تحمل مسئولية الاختيار كاملة بكل ما فيها من التبعة والنتائج ·

الوجود الراشد :

وآخر حلقات سلاسة الفهم وطلاقة الوجود تلك أن وثب الوجـدان المصرى وثبته العظيمة ، حيث جمع فى صدق الفطرة وضبط الحضارة بين الانسان والهه فى ذات الفرد ، فشع وجدانه بعيمـة سامية تفيـد معنى السيادة النفسية وتنبىء عن رشد الوجود ·

لقد أصبح هـذا الوجود منطويا على نبع النور وفيض الحيـاة ، حين انتهى الى أن « **الاله يسكن فى النفس** » · **وان** « **قلب الانسـان الهة** » ، وهو تقدير يركز ـ غير ما سبق ـ معنيين على أبلغ درجة من الأهمية :

الأول : ان الضمير الفردى يتكون من صفات الاله ويتشكل بأحكامه، بما يتعين معه على الانسان أن يجابه نفسه فى كل حين ليحدد صفات الاله فيه ، ثم يقوم على الأحكام ضميره ·

الثانى : ان الاله ليس زوبعة حول الانسـان تهدده بعصف كيـانه وقصف حياته ، انمـا هو سكن وهدوء يقر داخـل النفس ويكمن فيها ، بحيث يبدأ الوجود الفردى محاولة الحياة بكل قدرات الاله لديه ·

ولا شك أن هذا الفكر ، بمفهومه المباشر وغير المباشر ، كان رفعا من شأن الجسد واعلاء لوجود الانسان ، خاصة عندما عرف هذا الوجود حقيقة ذاته ، ثم أوجز التعبير عن ذلك فى جمل بسيطة وضعت الاله داخل النفس وادعا فحتمت على الفرد أن يبذل جهـدا لفهم ذاته ، والوصول الى مكمن

الاله فيه ، كما حتمت عليه كذلك أن يبدأ الوجود من نفســـه هو ، ثم ينتشر به – بعد هذا – الى ما يريد ويبغى ، حاملا بين جنبيه ميزان الحق والهداية ممثلا فى روح الاله .

وبهـذا اكتمل القوام الفـكرى لدى المصريين ، فأضاف الى فـكرة التجربة حرية الانسان وضميره ثم لم يتركه فيها وحده ، بل وضـع قوى الاله معه ، يبدأ منها ثم يسير معها ثم يرتفع بها . فان حاد عن هذا السبيل فقد جانب الحق وتنكب سواء الحياة .

عوامل الردة :

واذ كانت أسباب الارتفاع والعظمة هى بذاتها أسباب الانهيار والضعة عند غفو النفس أو كبو الضمير ، فقد كان من الطبيعى أن تنطوى الحضارة المصرية – شأن كل نمو – على عناصر الوهن والموات .

ولقد سلف بيان أسباب الوثوب المصرى الى قمم الارتفاع الحضارى والعظمة الذاتية ، وهى أسباب تؤدى تطبيقا للقاعدة المنوه عنها الى انحدار وضعة اذا ما تغير اللون أو تبدل المجرى ، كأن تحل بدل الغـايات العالية مقاصد دنيئة أو تصبح الشدة النفسية فتورا واستسلاما .

ولما كانت مسببات الحضارة المصرية تجمل فى انفتاح الوجود الفردى بما يجعل منه كمال الحرية ومحض الطلاقة ، فقد كان من المتعين أن تنبت الارادة الذاتية عند هذه الحدود العليا حتى تظل الحضارة على ما هى عليـه من تفتح . غير أن ذلك كان يكلف بعض الناس فوق ما يطيقون ، لأنه كان يفرض عليهم مئونة فهم الذات وعرفان النفس ثم يفرض عليهم بعد ذلك مسئولية التحديد ومشقة الاختيـار وتبعة التصرف ، ومن هنا يتضح أن الحضاره المصرية تجاوزت الرشد الانسانى وعبرت النضج الوجودى بجهد كان يتطلب حشد الملكات النفسية كلها فى سيطرة ذاتية تقودها الى الخير الشخصى والجماعى ، وهو أمر يقصر عنه جهد البعض ويكسل البعض الآخر دونه أو يعرض عنـه لأسباب تختلف من شخص لآخر وتتفاوت بين هـذا وذاك تبعا لاختلاف الجبلات والرغبات من جانب وتبـاين الروح الفردية والجماعية من جانب آخر .

وثم ماأدى الى هذا التخلف ، ضرورة ، من واقع الحياة ، وهو أن الاستقرار الحضارى لابد مستو على شكل مدنية تهيىء للفرد سبل العيس وتسهل له أمر القياد . وفى هذا الترف تمحى وسائل الـكفاح وتذوب الصلابة الفردية ، فتتحجر الاوضاع ، ويتغلب الشكل فيها على اللب والجوهر وبذا تطفو على سـطح المعارف حواشى الفـكر وتزدهر العرافة والـكهانة

والسحر بوصفها أهون السبل أمام الضعيف الخامل ، فما أسهل أن يضمخ الانسان نفسه بالدم بدلا من أن يطهر ذاته من الحقد والتنافس ، وأن يأكل لقيمة خبز أو يشرب كأس سائل مدعيا أنه قد امتص الطهر والقداسة ، وأن يفضل تقديم القرابين على تقديم القلب ، وأن يظهر التمائم ويستبقى النفس الأمارة بالسوء مستقرة فى ذاته ·

وعندما تصل الامور الى هذا الحد ، وقد وصلت بالفعل خلال التاريخ المصرى بصور فردية فى بعض فتراته وصور جماعية فى بعضها الآخر ، ينغلق الوجود الفردى · فطالما كان فى مقدور الفرد أن يشترى الآخرة يتيمة أو ينال الرضا والمثوبة بوساطة الكاهن ، فان فرائض الحياة النظيفة الكادحة تصبح عبئا لا محل له ولا موضع · وكان ذلك ما انتهى اليه الامر لدى بعض الأجيال فى مصر القديمة وعلى الأخص تلك الأجيال المتأخرة منها ، فكان اشارة المنحدر وبداية النهاية ·

وشيئا فشيئا ذوت الفورة وخمد الوهج ، فضيع الخلف أمجاد السلف وبانت من مسرح التاريخ أول حضارة فهمت معنى الوجود ـ فردا وجماعة ـ ثم عملت على فتحه من جوانب الحياة ومن جانب الله ··

***

الهند

وجه للمقارنة :

قامت بجانب حضارة المصريين القدماء حضارات أخرى لهـا مفاهيم خاصة فى الوجود لم تكن بمثل وضوح أفكار المصريين وسموها، ولا كانت بمثل ما هى عليه من حسم ٠

واذا ماعن لنا أن نبين بعض هذه الأفكار على سبيل المقارنة واستكمالا لفهم الفكر المصرى بفهم فكر يقابله ، وجدنا فى شطر من حضارة الشرق الأقصى خير مادة لذلك ٠

وحدة الوجود :

ففى مفهوم الحضارة الهندية كان أساس النظر الى الوجود أنه وحدة واحدة وان الانسان جزء من كل مختلط به ، أو على التشبيه المادى قطرة من مياه بحر زاخر ٠ على أن الوحدة هاهنا تعنى الواحدية ، وهى التقدير المقابل للكثرة والمعبر عن ضدها ٠

وعلى ذلك وبحسب وحدة الوجود التامة فان الانسان والحيوان والجماد وما عداهم ليسوا غير عناصر متساوية فى تكوين الوجود وتلوين صورته ٠ لهذا كان الفرد ــ فى هذه الحضارة ــ يحسب أن ثمة رابطة من قرابة تتخلل الأشياء جميعا بما فى ذلك كيانه ، وبافتراض ان كل ما فى هـذا الوجود ينطوى على الروح بداخله ٠

وينبنى على ذلك حتما أن يحاول الفرد اذا ما أراد الارتقاء بوجوده أن يلتمس وشـائج القربى بينه وبين ما عداه من خلق ٠ وبمعنى آخر أن يعمل كل ما فى وسعه ليذيب كيانه فى الكون ٠

والنجاح الكامل فى هذا التقدير أن يتلاشى الوجود الفردى فى الوجود العام بما يحقق المبدأ الأول وهو وحدة الوجود ويعيد سيرته ٠ وسبيل ذلك قهر الرغبات والنوازع بحيث لاتعود تسيطر على وجود الفرد، ومن ثم يغيب

ضمير المتكلم « أنا » عن أفكاره الخاصة ، وعند ذلك يصل الى الحكمة العليا المعبر عنها باللفظ الهندى النرفانا وهى صفاء الروح .

فالنرفانا لا تعنى الفناء وانما تفيد تلاشى الاغراض الشخصية التى تجعل الحياة بحكم ضرورة المطالب دناءة وذلة وهوانا .

الأثر الوجودى :

ومفاد هذا الفكر عن الوجود الفردى أنه منفتح حتى الجوهر القدسى يحاول جهده أن يرقى اليه . لهذا كان من الطبيعى فى هذا التقدير أن يعود الفرد الى الحياة أكثر من مرة ، اذا لم يكن قد استطاع الوصول الى النرفانا ولكى يحاول هذا الأمر حتى يحققه . وبذلك نشأت فكرة تناسخ الأرواح على صورة من الجزاء بحيث يؤدى تصرف الفرد فى حياته الاولى الى تحديد معين فى الحياة التالية . وهكذا ان كان خيرا ما فعل فضلت نفسه فصار انسانا أرقى ، وان كان شرا ما فعل ساءت نفسه فانتقلت الى جسد حيوان أو ما شابهه .

مفارق الأفكار :

ولا مشاحة فى أن هذا الفكر قد رقى بالوجود الفردى ولكن عن سبيل يخالف سبيل قدماء المصريين فى هذا الصدد . فأساس فكرة هؤلاء التجربة ، وأساس فكرة أولئك الامتزاج . وكان مؤدى هذا الاختلاف فى انتهاج سبل التقدم أن ساد خط التجربة لدى أصحابه حتى وصل الى حضارة علمية شاهقة ، بينما سار خط الامتزاج بأصحابه الى رغبة كاملة فى اكتناه غير المحسوس والاختلاط به مما هبط بقيمة الوجود الفردى حين نذر نفسه للجن والسحر والشعوذة .

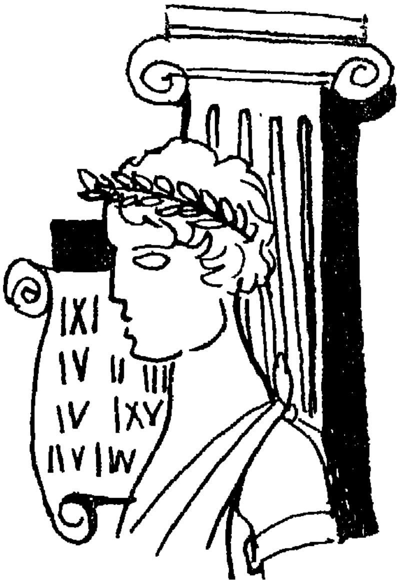

الاغـــــريق

البيئة الفكرية :

اتخذ الوجود عند الاغريق أوضاعا ومفهومات أخرى كان من سوءحظ الانسان أن طبعت وجوده تم حصرته فلم يستطع التحـرر من ربقتها حتى الآن اذ صارت النقطة التى تفرعت منهـا كل مسـارات الوجـود الفردى المعاصر وهى بطبيعتها مسـارات مغلقة .

لقد كان الاغريق أهل نظر ، عاطلين عن العمل اليدوى وفنونه ، ومن ثم راجت لديهم صناعة الكلام ·

وقبل أن تبدأ حياتهم الفلسفية التى اشتهروا بها ظهرت ملحمتان من الشعر ونحلة فكرية مهدت للمناهج الفلسفية سبل الظهور والانتشار بما نثرته على مجال الوجود من قيم خالطته حتى صارت من صميم بنائه ·

فكرة الجبر :

ففى العصر الهوميرى أنشد هوميروس ملحمته المعروفة باسم الالياذة، وقد تمثل هذا القصيد أحلام الاغريق وآمالهم كما تضمن قيمهم الاجتماعية ومثلهم العليا مما أدى الى انزاله فى النفوس منزلة عالية حتى صار كتابا مقدسا يحفظه الجميع ويرون فيه أسس العلم وأصل اللذات ·

وكان أخطر مافى هذا القصيد من أثر وجودى فكرة القضاء والقدر ، ففى كل ما قص من احداث برز ايمان صارم بخضوعها الى ضرورة ثابتة تحكم الافعال والنتائج وتسرى على الناس والآلهة ·

ومؤدى ذلك خضوع كل وجود الى جبرية لازمه مهمـــا تحركت ارادته فى نطاق الاختيار الممكن ومهما حاول تفادى مصيره المحتوم ·

الخلود الجسدى :

وتلا ذلك ظهور الشاعر هزيود وقصيده المعروف باسم الايام والاعمال ، وهو قصيد كان له فى الفكر الاغريقى أثر كبير ٠

وكان أظهر ما فى هذا القصيد من أثر وجودى قصر الخلود على الجسد ٠ فقد توالى على فكرة ثابتة هى ان الآلهة شبيهة بالبشر كل الشبه ـ جسدا وخلقا وفهما ـ غير أنها تتميز بخلود الجسد ٠

ومفاد ذلك أن الانسان لايلتقى بالحياة الا من خلال الجسد طوال فترة بقائه ، بما يعنى أن وجوده محدود بدايه ونهاية بالميلاد والوفاة كأنما هو جزيرة صغيرة يحيط بها العدم من كل جانب ٠

تمايز الروح والجسد :

وأعقب الفكرتين ظهور النحلة الاورفية بقيم شبه دينية ، كانت تدور كلها حول فكرة تمايز بين الروح والجسد ، وترى فى هذا عقوبة لتلك تكفر بها عن خطيئة أولى ارتكبها الجنس البشرى ٠ اذ أكل التيتان ـ أصل هذا الجنس ـ لحم ديونيسوس ابن الاله زيوس ، فغضب عليهم وأحرقهم ٠ ثم خلق جسد الانسان من رماد الحريق ونفخه الروح من طبيعة ديونيسوس الذى عادت اليه الحياة وصار اله الاورفية ٠

وكان أكبر ما فى الفكرة من أثر على الوجود اعتبارها الجسد سجنا للروح وقبرا طواها نتيجة خطيئة لم يرتكبها بنفسه ، ثم افتراض الحياة عجلة يدور عليها الوجود حينا بعد حين فى تناسخ متجدد اذ لم يستكمل العقوبة المفروضة عليه ٠ ومعنى ذلك أن الوجود الفردى عارض يقهر الروح على نهج الحياة فى تذبذب مستمر بين خطيئة الجنس وخلاص الذات ٠

جماع الأفكار :

وقد كان من شأن جماع هذه الافكار أن صارت المنسكاة التى استنار بها العقل الاغريقى فى فلسفته والوجود الفردى فى حياته ٠٠ وكان من شأنها أن تسربت الى الجنس البشرى حين اتخذ من الحضارة الاغريقية أصول علومه وجعل منها أعمدة بنائه الفكرى ٠

وربما أمكن ارجاع جل أصول الفكر الاغريقى الى أفكار سابقة تضمنتها حضارات أخرى ، غير أن الأفكار فى هذه الحضارات كانت أقرب

الى التعبير الادبي ووجهات النظر الخاصة ، في حين تميزت لدى الاغريق بنبأنها في الكيان الفردي وانطباعها على الوجود في شتى القيم والمثل ، ومن هنا برزت أهميتها بصدد البحث في تاريخ الوجودية .

تقدير الانسان :

على أنه حدث بعد رسوخ هذه الأفكار ان بدأت حياة الاغريق الفلسفية وكان لابد أن تكون هذه الحياة على موقف من تلك الأفكار تأييدا وموافقة أو معارضة ومناهضة .

وفي هذا الحين قامت السوفسطائية كمدرسة ذات أسلوب خاص يؤيد الخطابة ويعلم الحوار باعتباره وسيلة تستثير العاطفة بزخرف القول وتظهر الفكرة من الحاح الحديث . ولدى هذه المدرسة نشأت نزعة تمجيد الانسان ووضعه أمام قوى الطبيعة في ميزان واحد فقال بروتا جوراس ـ أحد عمدها ـ ان الانسان مقياس الأشياء جميعا وكان يعنى بذلك أن الخبرة البشرية تقابل القوى الكونية وان استلهام هذه الخبرة خير من التضرع لتلك القوى .

ومن هذه التعاليم وأمثالها وعلى آثار انكساجوراس ـ أحد الأئمة ـ حل العقل الانساني محل آلهة الأولمب على أساس الشعور العالي بأن العالم الانساني الحقيقي يقوم في الاستقلال المطلق للعقل .

بداية المزالق :

ولا غرو أن مثل هذا الفكر في مثل أوانه ذاك كان فتحا للانسانية ، خاصة وقد جاء مستقلا عن الدين غير خاضع لجمود سدنته ، الا ان اتسام السوفسطائية بالجدل وتطوره الى جدل عقيم في فترات متأخرة لا ريب ، أدى الى اسقاط ثمراتها من حساب التقدير ، خاصة عندما افتقدت منهاجا سديدا للتقويم الانساني فحلت اللذة محل التقدير الصائب وبيع المستقبل لقاء لحظة من الحاضر .

معرفة الذات :

وجاء سقراط معاصرا لمدرسة السوفسطائية فالتقط منهم الكرة ثم استقل بها في ملعب للفكر خاص به أساسه الجدل الموجه توجيها سليما الى هدم الأفكار الخاطئة وتوليد أفكار جديدة أصوب منها . واتخذ سقراط لنفسه شعارا جملة قرأها على معبد دلفي « اعرف نفسك » .

ولقد قيل ان سقراط أنزل الفلسفة من السماء الى الارض ، ولكن من الحق أن يقال انه وأضرابه على العكس رفعوا الانسان الى السماء، حين دعوه لأن يتعرف على نفسه فيرقى بها فى معراج جديد من التقدم ٠

وعلى الرغم من أن السوفسطائية قد أصبحت حتى يومنا هذا علما على الجدل العقيم ومنها اشتقت السفسطة اسما لهذا الجدل، فقد ظل سقراط أبد الفكر رمزا لطلاقة العقل وحريته ، وذلك بفضل المنهاج الذى صان به جدله من الاسفاف وحماه من التردى فى مهاوى الغرض الوقتى واللذة العابرة .

مثل هذا الحكم الذى انتهت اليه السوفسطائية لا يهدر صواب مابدات به ، ولا أنها كانت السبب المباشر لظهور سقراط ووضوح منهاجه ٠ لقد كانت هذه المدرسة وسقراط معها حدثا رائعا فى تاريخ الوجود تفتح معه الكيان بفيض من الثقة لم تغلق دونه الأبواب ٠

نكسة الذات :

وعندما خلف أفلاطون استاذه سقراط انتهج منهاجا يغاير منهاجه فقد فضل الصورة على الواقع ولم يهتم بالوجود الانسانى مثلما اهتم بماهيته ، وبذلك أقام بناء جديدا للفلسفة دوت بين جدرانه كل الصيحات الفلسفية التى أعقبته سواء أيدت ماقاله أو عارضته .

ولم يشفع لأفلاطون فى وزر اغلاق الوجود انه حين رف الفلسفة قال : «انها التشبه بالله قدر الطاقة البشرية » ذلك أنه قصر المتشابهة على الفلاسفة ثم أمعن فى القصر فحد الفلسفة بالبحث فى الماهية والصورة أو أصول الأشياء ومثلها ولم يهتم قط بتطبيق هذه الأصول والمثل فى نطاق الواقع حيث يكون الوجود الانسانى حقيقة ٠

لقد بدأت الفلسفة ، سجل العقل البشرى بعد افلاطون تبحث فيما وراء الطبيعة أو ماأطلق عليه « ميتافيزيقا » ٠ وكان على كل فيلسوف أن يقيم فى هذا المضمار بناء فلسفيا كاملا ينقض به آراء من سبقوه ثم يدلى فى البئر بدلوه ليملأها بآراء مقابلة . ولم يكن بد من أن ينضب البئر ماظل مفتقرا الى فيضان الماء الجديد ٠ وبذا انحصر الأخذ والعطاء فى نطاق محدود ومجال ضيق ركدت فيه حركة الفكر وانعزلت عن تيار الوجود الدافق ٠

أثر الفكر الاغريقي :

ولما كانت أصول الفكر الاغريقي ــ وحدها ــ هي الاصول الظاهرة والمعروفة لما تلاها من فكر ، فقد انبنى عليها هذا الفكر واتخذ منها طريق وجوده فأدى ذلك الى انتهاج الوجود البشرى فى الحضارة الغربية كلها نهجا واحدا . ثم أدى بالتالى الى ظهور الطابع الاغريقى على الوجود البشرى المعاصر كله حين غابت عن أفق الفكر أية أسس حضارية خلا الفكر الاغريقى ، وحين صار هذا الفكر أساسا لحضارة طوت بدورها كل قيم الوجود ثم صارت الحكم الاعلى لمثله . وفى تقديرنا ان الفكر الاغريقى أساء الى البشرية اساءة بالغة . لقد غرها بطلاء براق من الالفاظ وبناء خاو من المعنى ثم ألقى بجهدها كله فى دوامات من الجدل الأصم وترك روحها غريبا فى أزقة متشابهة من الفهم المغلق .

ومنذ بدأ أثر هذا الفكر فى المجال البشرى وحتى الآن والى أن يستطيع الوجود انفلاتا من أساره البغيض ، وهو سبب للفصل بين الانسان وذاته بما وضع بينهما من متاهة الغربة . وما من طريق مغلق للوجود الا تأثر بالوصمات العشر التى تركها الطابع الاغريقى على الحضارة الغربية وما يتبع خطاها .

الوصمات العشر :

انتهى الطابع الاغريقى الى نتاج ينحل فى الأفكار التالية :

أولا : لا وحدانية : فالعقل الذى يتصور الآلهة كثيرة تقيم على قمة جبل الأولمب على الهيئة الآدمية وفى خضوع لسنن محددة لا يستطيعون فيها تأثيرا ولا منها هروبا ، لايمكن أن يرقى الى مستوى الوحدانية فيدرك وجود اله واحد ، قادر مهيمن بارادته وليس كمثله شىء .

ثانيا ــ سقوط الآلهة : لابد أن يؤدى هذا التصور المختل الى التقليل من شأن فكرة الألوهية واسقاطها الى منزلة الانسان ومستواه بحيث تشابه فى مدلولها شخصيات الشعراء وأخيلة المنشدين دون القدسية والجلالة .

ثالثا ــ فصام الذات : وتصور الآلهة على نحو الانسان يؤدى بالتالى الى تصورهم يعملون كما يعمل . والظاهر عند ملاحظة فن النحت المزدهر فى حضارة الاغريق ان الفنان كان يتخيل الصورة أولا ثم يحاول ــ من مادة أمامه ــ أن يصنع التمثال على غرار ما تصور فقد انتهى بهم الأمر الى الاعتقاد بأن الآلهة تصورت مثالا للانسان ثم أقامت الواقع على نحوه .

وبهذا انقسمت الذات الانسانية فى الفهم الى شكل وصورة ، واقع ومثال ، وجود وماهية • ومؤدى ذلك أن الوجود (أو الواقع أو الشكل) تدهور للماهية (أو المثال أو الصورة) وانه تال له ، ومحاولة مستمرة للوصول الى حالته ولات حين وصول والعمر قصير •

رابعا – الخطيئة والخلاص : واذا كان من الضرورى أن يكون لتدهور الوجود من الماهية سبب ، فقد جرى التصور بأن أصل الجنس البشرى قد ارتكب اثما ألزمه الذنب وأورثه العقوبة • وبذا ابتنى الوجود على الخطيئة واعتبرت الحياة مجرد خلاص • ومفاد ذلك أن الجسد سجن الروح تظل فيه حتى تستوفى عقوبتها دون ارادة فى الحياة أو الممات • ومن جانب آخر أن الانسان قد تناسخ مرة بعد مرة اذا لم يوف العقوبة ويمحو الذنب •

خامسا – الحياة جسد : طالما كانت الحياة عقوبة وكان الجسد هو السجن الذى يتم فيه استيفاؤها فان الانسان لا يمكن أن يلتقى بالحياة الا فى نطاق هذا المعنى وداخل حدوده ، بمعنى أن الحياة صدع فى البناء الجثمانى حسابها الانفاس المعدودة ، فلا يستطيع الانسان أن يلتقى بها أو يعرفها الا من خلال الجسد • وفى الوقت الذى يبدأ بالميلاد وينتهى بالوفاه . أما قبل ذلك وبعده فلا شىء على الاطلاق .

سادسا – الجبر والاختيار : من الطبيعى أن تكون الفكرة المتداعية بعد ذلك هى خضوع الانسان خضوعا صارما الى قدر أعمى وقضاء غير بصير لايعبأ بحقيقة فعله أو طبيعة نواياه ، يوزع المقادير بغير عدل ويرسم المصائر دون أصول •

والانسان فى هذا العماء لا يملك حيلة ولا يستطيع شيئا ، ومهما تحركت ارادته فى نطاق مايعتبر اختيارا لأفعاله فان القدر لا محالة صائر الى ما أبرمته الآلهة من قبل وقضت به عليه .

سابعا – النظر والعمل : بهذا بطل العمل فى الطابع الاغريقى . وما جدواه فى تقدير يرى أن العمل لا يفيد شيئا ولا يغير محتوما !؟ لقد صار العمل فى هذا الفهم لصيقا بالطبقة الدنيا ، أما الأعلون فلهم النظر وحده دون ما فعل ، كى لا تتسان الذات ولا يساء الى الكمال المطلوب • ومن هنا ضرب المثل بمن يحضر الالعاب الأوليمبية على أنه واحد من ثلاثة ، نهاز يقتنصها فرصة ليتجر ، ولاعب يرجو السبق والفوز ، وناظر يشهد كل ذلك ولا يسهم فيه ، وهو الافضل والارقى والاكمل •

ثامنا – تقديس العقل : وما دام النظر درجة أعلى فان الحياة لاتبلغ فضلا الا عن طريقه • فالجدل وحده يصل بالانسان الى الحقيقة والنظر

وحده يبلغ به أقصى درجات الكمال • وبهذا تعين اطلاق العقل بغير عمل، ظنا بأن ذلك سبيل الخلاص •

تاسعا ــ بطلان الحياة : لابد أن يؤدى هذا السلسل الى بطلان الحياة باعتبار أنها أصلا غير ذات معنى وانها لا تعدو أن تكون خطيئة • ومن جانب آخر فان أى اتجاه أو عمل فيها لابد أن يكون باطلا ما دام الفناء هو الأفق الذى يغرب فيه الانسان ، وما دام القصد من العمل أن يوجه فقط الى خلاص النفس من الخطيئة فى الحياة الدنيا .

عاشرا ــ انغلاق الوجود : ونهاية المطاف فى هذا الفكر انغلاق الوجود على الانسان فهو منطو على ذاته فى جهالة بها ونفار . غريب عنها وعن غيره ، عاطل من قصد يحدوه ، خاو من معنى يعطيه قيمة .

***

فالانسان تبعا للطابع الاغريقى وجود سقط الى الحياة من ماهية كاملة نتيجة خطيئة لم يرتكبها بنفسه ولكنه يكفر عنها بعيش ينحصر بين الميلاد والوفاة• والراغب فى التجرد من نير العيش يعمل على تطهير نفسه حتى تتلاشى أمام الحياة وتفنى • أما المعرض عن التحرر فمن الطبيعى أن يتهالك على الحياة وملذاتها دون ما اعتدال فى ذلك •

ومن هنا تعين أن ينغلق وجود هذا وذاك ؛ وخاصة مع عدم وضوح فكرة الجزاء لاى منهما عقوبة أو مثوبة • ذلك أن فكرة الحياة الآخرة لم تكن واضحة فى الطابع الاغريقى فضلا عن الظن بانتفاء الثواب والعقاب فى هذه الحياة الا فى النادر جدا ، والاعتقاد بأنه أمر ان حدث يخضع لأهواء الآلهة الذين يوزعونه بغير عدل كشأنهم فى الحياة الفانية . ومن جانب آخر فان قصر الجزاء على التناسخ لا يحقق الغرض المقصود من الفكرة لأن الحياة الدنيا ــ رغم رأى البعض فيها ــ لم تزل دار هناء وصفاء للغنى وللغبى •

سبب الطابع :

ومن الظاهر أن الطابع الاغريقى ليس غير حلقات متصلة من الأفكار المتداعية • بدأت بفهم خاطئ لفكرة الألوهية وتقدير الاله ثم تتابعت على شكل مفاهيم ذات عوج • وكان ذلك حيث ظنوا الآلهة على قمة الأولمب يؤلفون حكومة ملكية برأسها زيوس كبيرهم وينتظم فيها الآخرون فيختص كل منهم بأمر معين : أثينا للحكمة ، ومارس للحرب ، وكيوبيد للحب وكليو للتدبر ••• وهكذا • ومن هنا صارت الالوهية فى هذا الفهم حكما بشريا وصارت الآلهة حكومة ملكية •

والحكام في هذا النظام على قصور في القدرة دعاهم الى التخصص في العمل ، ونقص في الخلق جعلهم في نزاع دائم . ومن النقص والقصور يخلص تقدير غير صائب وحكم بلا عدل ، اظهرهم في أحيان كثيرة ساخرين من الفضيلة عابثين بالارادة الصالحة .

واذ كان تقدير الانسان للاله ليس غير صورة ذاته ونتاج عقله ؛ كما أن فكرته عن الالوهية لا تعدو أن تكون قالب مثله وطابع قيمة ، فان الشعور الخاطيء في أى منهما لابد أن يكون سببا أو نتيجة لتصور خاطيء في فهم الانسان لنفسه .

ولما كان كلا الأمرين لحمة الوجود ، فقد كان من شأن النسيج ان تداخل على صور خاطئة تم تواتر عليها . وبذا نشأ الطابع الاغريقي بكل مافيه من مفاهيم قاصرة وقيم عليلة . يتصل أولها بآخرها ويقوم بعضها على أساس البعض بحيث لا يمكن تصحيح قيمة منها دون فك النسيج كله والعود مع خيوطه الى البداية ، حيث يبدأ فهم جديد لأفكار الانسان عن الاله وفكرة الالوهية والوجود الفردى .

أما أى تعديل في الثوب الفكرى بغير ذلك فلا يمكن أن يكون الا رقاعا ليست منه ، وبالتالى لا تحقق فاعلية للقصد المطلوب .

تقدير الطابع الاغريقي :

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن الحضارة الغربية تقدر الفكر الاغريقي تقديرا مبالغا فيه فتضعه في الصدارة من الفكر البشرى عبر التاريخ ، وترى فيه أصل كل فكر ، رغم انه – على ما وضح فيما سبق – ليس غير تشتيت للعقل الانسانى في طرائق من الفكر الحلزوني وبعثرة للقوى الوجودية في مسائل من النظر المنحرف .

وربما كان سبب هذه المبالغة الشاذة ان العقل الغربى لم يعرف معنى لوحدة الفكر ووحدة الذات ، كما انه لم يلتق بغير الطابع الاغريقي . غير أن هذه المبالغة – بالتالى – هى السبب في حجبه عن معرفة معنى وحدة الفكر ووحدة الذات أو الالتقاء بطابع حضارى آخر يجرى تلاقحا في الأسس التى يقوم عليها وجوده .

فمع الاشادة الدائمة بعظمة العقل الاغريقي وعظمة الحضارة الغربية ، هناك تغافل عن حقيقة أن كلا منهما نهض على اشلاء الروح وقام على انقاض المعاني . ويظهر ذلك بوضوح لدى تبيان الطابع الاغريقي في كثير من قيم الحضارة الغربية :

اللاوحدانية فى التثليث المسيحى ، سقوط الآلهة فى الحركة العلمية التى بدأت منذ القرن السادس الميلادى ، فصام الذات فى تقدير التتابع بين الوجود والماهية لدى الفلسفات المذهبية والوجودية الغربية المعاصرة ، الخطيئة والخلاص فى اللاهوت المسيحى ، جسدية الحياة فى الحركة الشيوعية والعقول الدهرية ، الجبر والاختيار فى المذهب السلوكى لعلم النفس والتفسير المادى للتاريخ ، رفعة النظر على العمل فى بطالة السراة وانعزالية العالم عن الحياة ، تقديس العقل فى النهضة العلمية الحديثة .

***

لهذا كله يبدو من الواضح للفهم النزيه أن الطابع الاغريقى حصر للفكر فى أى مسلك يقتحمه واغلاق للوجود من أى منفذ يرجوه .

أما حجة أبوته للحضارة المادية الحديثة فليس الا وهما خيله التتابع بينهما . ذلك أنه لم يقطع بعد بانتفاء حدوث هذه الحضارة المادية من بحر آخر أكثر صوابا . وطالما كانت النتائج غير لازمة بالضرورة من مقدمات بذاتها فانه لا يلزم أن تؤدى هذه المقدمات الى تلك النتائج . ومفاد ذلك أن الوثب الروحى للانسان هو الذى أدى الى النهضة المادية ، فلم تلزم هذه النهضة من الطابع الاغريقى ولم يكن من اللازم أن يؤدى هذا الطابع اليها .

هذا بالاضافة الى أن حضارات أخرى وصلت الى رفعة مادية أعلى وأثبت ، وانها تضمنت ما ضيع الطابع الاغريقى من روح الانسان ومعرفة ذاته ، وما بدد من وجوده . ولقد أعشى البصيرة فى تقدير الطابع الاغريقى انها تناسجت من خيوط هذا الطابع .

الرومان

حضارة الجند :

بجوار الحضارة الاغريقية وعلى آثارها قامت حضارة الرومان. وكانت هذه الحضارة ميدانا للتشريع والجندية أكثر منها للفكر والتأمل . وفى مجال البطولة كانت الآلهة أو بعضا منها يمثل الشجاعة المطلقة والبسالة والاقدام فكانوا بذلك مثل الافراد وقيمهم العليا .

الآلهة مع الناس :

وعن هذه الفكرة الاولى نشأت آلهة كثيرة عد كل منها مثالا كاملا وكان من الممكن ـ تبعا للفهم الرومانى حينذاك ـ أن تنزل الآلهة من عليائها الى الارض ، ومن ثم كان الرومانى يعتقد عندما يرى بطولة تفوق الحد المعتاد أن روح الاله تقمصت البطل ، أو ان هذا البطل ان كان غريبا لم يعرف من قبل هو الاله ذاته ٠

وقد انتشرت هذه الفكرة فى كل البلاد التى خضعت لسيطرة الرومان اذ جرى الظن بأن الآلهة تنزل الى الارض وتتزوج من بنات الناس ٠

استقرار الخطأ :

وبالرغم من أن هذا الفكر استقر فى الكيان الفردى قبل رسالة السيد المسيح بزمن طويل فقد استمر حتى وقت الرسالة والى تدوين الاناجيل وما الحق بها بعد ذلك أيضا ٠

فقد تضمن سفر أعمال الرسل مثالا واضحا لهذا التفكير المهتز ، ذلك انه عندما شفى بولس الرسول رجلا عاجزا رفعت الجموع أصواتها قائلة : ((**ان الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا الينا فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس**)) ٠ وجاء فى موضع آخر أن أفعى نفثت سمها فى يد بولس

الرسول ولما لم يمسـ ورأى المشـاهدون « **انه لم يعرض له شيء مضر تغيروا وقالوا هو اله** ٠

النتيجة :

كان انعكاس هذا التفكير على الوجود الفردى أن أغلفه ٠ فالانسان في مفهومه يظل دائما أبدا كما هو لايعلو على ذاته ولا يرتفع ٠ ومن جانب آخر فان الآلهة هى التى تتحكم فيه تحكما مطلقا بلا قاعدة أو نظام ثابت وهى التى تهبط الى الانسان لو شاءت تشبها به ، بلا فرصة أمامه للارتفاع اليها أو حتى محاولة ذلك ٠

الاسـرائيلية

الارض الفكرية :

أقام بنو اسرائيل على رواية الكتب المقدسة ـ فى مصر بين ظهرانى أهلها فترة طويلة من التاريخ كانت كافية لمعرفة الفكر المصرى القديم . وخلال هذه الآونة لم يكن للاسرائيليين ، فكر متميز . وفيما خلا عبارة يهود اله آبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب الملقب اسرائيل ، كانوا على خواء كامل وعطل انسانى لم يسمح لهم بابتداع نظام قيمى أو انتهاج سبيل التفسير المقنع للأشياء والاحداث .

وبعد خروجهم من أرض مصر واستقرارهم فى أرض كنعان «فلسطين» بدأت تتكون لهم أفكار موائمة تطابق مقتضى الحال وتساير الركب الجارى . ولما اتخذت هذه الافكار صورة قبلية وشكلت خطرا على مملكة كلدانيا أمر الملك الكلدانى نبوخذ نصر الثانى بنفيهم الى بابل حيث قضوا زهاء خمسين عاما ، عادوا بعدها الى أورشليم تحت رعاية قورش الملك الفارسى الذى كان آنذاك قد فتح كلدانيا .

وخلال فترة الاسار البابلى حدث تمازج عنصرى وفكرى جسيم بين اليهود والبابليين كان من شأنه أن تبلور الفكر الاسرائيلى فى الأسفار الاولى من التوراة والتى تتضمن كتب التشريع .

عناصر الفكر :

ومن هذه الخلاصة التاريخية يمكن استظهار العوامل التى نشأ فيها الفكر الاسرائيلى واكتمل ، كما يمكن استنتاج عناصر هذا الفكر .

ويلوح من أول وهلة أن أهم العوامل لم يكن غير ترسب مركب النقص فى الكيان الاسرائيلى حين عاشوا بين العالمين دهرا أحسوا فيه أ الأقل والأضعف وانهم الجنس المهمل من الخلق ليس لهم فى حمل لواء الحضارة حركة ولا لهم فى دفع عجلة الحياة مكان . ويلوح من أول وهلة

كذلك أن من نتائج هذا الشعور بالعجز والقصور رد الفعل الجامح الذي يخلق لنفسه احساسا باهتا بالفضل والتفوق . فمن تدارج المؤثر الاجتماعي والفكر المنعكس قام الوجود الاسرائيلي بفلسفته العامة وتقديره الخاص على نحو يظهر الصلة بين التمر وأرضه . وفي التوراة ، وهي أول كتاب ينسب الى الله الوحي بما فيه وردت نصوص تقيم علاقة من مشابهة بين الانسان وخالقه اذ جاء في سفر التكوين :ـ

« **وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا** » .

« **وخلق الله الانسان على صورته ، على صورة الله خلقه ذكرا أو أنثى** » .

هذه المشابهة تشمل البشر جميعا لا شك كما يظهر من اطلاق اللفظ في النصين وعدم قصرهما على نحو معين . وما جاء في النصين يثير في الذهن سؤالين عن المعنى والمؤدى . ما المقصود بالصورة والشبه ؟ وما الغاية من تلك المشابهة ؟

سؤالان بديهيان كانت الاجابة الصحيحة عليهما تفتح للوجود الانساني أشرف أفق وأجله . غير أن الفهم اليهودي في ركوده الاسن سرعان ما أغلق النافذة وأوصد الباب دون الترقي على مصعد الخلق الكريم .

مركب النقص :

لقد نبتت على صحراء هذا الفهم نبتة من حنظل الاضطهاد مررته وأفسدت مجراه حين تصور أنه شعب الله المختار . وكان مؤدى هذا الفكرة أن الله ـ رب الكون الأوحد ـ خلق الناس جميعا ليفضل عليهم اليهود شعبا ويختارهم منهم . وبذلك يكون الكون قد أشرف على غايته ويكون بنو اسرائيل هم هذه الغاية . وهكذا انغلق الوجود عند الاسرائيليين عليهم واصبح مجرد مداعبة بين الخالق وبينهم . ان رضى عنهم سودهم على الشعوب وحكمهم فيها . وان لم يرض فعل العكس .

وكان من مقتضى انحناء العقول صوب النفس في حدة عنصرية أن لوى الاسرائيليون فكرة الله بقصورهم الفهمي وحدوا معناها بتقديرهم المختلط فتصوروه على هيئة الشخص العادي ، صفاته من صفات الانسان ، فهو يغار ويحقد ويثور ويندم ويؤاخي ويعادي . لهذا فقد عبدوه على خشية وأطلقوا عليه اسم « ايل » وهو في اللغة الآرامية لفظ يعني « القوي » ثم انتسبوا اليه بأسماء تفيد معنى القرابة كعمائيل وايل آب وما شابه تصورا منهم بامكان النسبة على محمول اللفظ .

وظل الفكر الاسرائيلي زمنا ينسب الى الاله صفات الانسان وأعماله فاعتبر انه كان يتمشى فى الجنة وانه صارع يعقوب ثم أسماه اسرائيل وانه دفن موسى بنفسه حين مات ٠

تحليل الوجود :

واذ كانت فكرة الانسان عن الله مدار قيمه ، فقد كان من المحتم بهذا الفكر أن يتحلل الوجود الاسرائيلى الى عدد من الهفوات الذهنيـــة والرطانات الفجة ، طالما كان مثله الأعلى شخيصا لرؤى غفوته وأحلام يقظته ، وما دام هذا المثل خاضعا لأهواء النفس تقيمه على أى شكل تريد ٠

فعلى نحو ماسلف وباستلهام حقيقة الذات أو تشكيلها على نحو غير شعورى ، يجاهد الوعى الفردى فى انتهاج مسلك موحد يناسقه لنفسه من بين المسالك المختلفة ٠ وشيئا فشيئا يصبح المسلك طابعا ، ثم ينطبع به الوجود فيصير ضميرا ، ثم يرتقى به ويتجرد فاذا هو القيمة العليــا ممثلة لحكم الاله وصفاته ٠

فكأنما فى تقدير الانســـان بيقظة النفس وجدها أو بغفو الفؤاد وهزله ، ان يجعل الهه يقينه أو يجعل الهه هواه ٠ ذلك بالطبع مع اسقاط المؤثرات الاجتماعية والارتية وبفرض حيادها دون ما تأثير فى الاختيــار الفردى أو تأثر به باعتبار ان هذا الامر يجعل البحث حلقة مفرغة لا تعلل الوجود الفردى ولا تعلل الوجود الجماعى ٠

ولقد كان الفكر الاسرائيلى قاصرا دون معرفته بحقيقة ذاته وبوضعه من الكون ، فاذا به يرتد الى خياله يستعيض به عن الواقع ويجنح به الى خدر الضمير ٠ وبهذا عكس المنهاج الطبيعى وسنة الأمور فاذا هو يسقط الاله الى الارض بدلا من أن يرتفع بنفسه الى مستواه ، وبهذا ظهرت فكرة الله فى الوجود الاسرائيلى على نحو رجل بدائى ، ولم يظهر هـذا الوجود ابدا فى صورة رجل كامل أو رجل أقرب الى الكمال ٠

حتى انبياء بنى اسرائيل خضعوا لانكسار هذا الفكر فاذا بالتوراة تجعلهم صورا أقرب الى ملوك السياسة منهم الى دعاة الحق والنصفة وقادة الضمير الانسانى عامة ٠

نتائج الفكر :

لقد تفرع من هذا الفكر فكر آخر مهد للسقوط وساعد عليه حين تبلور فى عقيدتين: أولاهما أن النجاة للشعب جميعا وبه جميعا ، وثانيتهما أن الوجود الفردى محدود بالعيش ، بما يعنى تبدد الحياة من بعد الوفاة ٠

قوام المسئولية :

جاء فى التوراة : **أنا الرب الهك اله غيور ، افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع »**. وهو معنى يزر وازرة وزر أخرى ، فيحمل الأبناء جرم الآباء دون ما تحديد لذنب الأبناء فى ذلك ، وبغير تعليل الا أن يكون نوعا من المساءلة الجماعيه على نحو تؤخذ فيه القبيلة بجرم فرد منها ، وتعاقب المدينة بفعل واحد من بينها .

ومن هنا جاء خطاب التشريع فى التوراة بصيغة المخاطبين ، فكان التكليف للمجموع كله والجزاء لهم جميعا . ولم يرد بصيغة المخاطب الا فى مواضع قليلة كان يقترن فيها بطول الحياة جزاء على تنفيذ المطلوب . وبديهى ان طول الحياة جزاء فردى لا يهم الا طالبه . ومن ثم كان للخطاب الفردى فيه علة توجب الاستثناء من القاعدة العامة. والامثلة على ذلك شتى منها :

« فتحفظون جميع فرائضى وجميع أحكامى وتعملونها لكى لا تقذفكم الارض التى أنا آت بكم اليها لتسكنوا فيها » .

« ان لم تظلموا الغريب واليتيم والأرملة ولم تسفكوا دما زكيا فى هذا الموضع ولم تسيروا وراء آلهة أخرى لأذاكم . فانى أسكنكم فى هذا الموضع فى الارض الذى أعطيت لآبائكم من الأزل والى الأبد » .

« أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الارض » .

« احفظ فرائضه ووصاياه التى أنا أوصيك بها اليوم لكى يحسن اليك والى أولادك من بعدك » .

حد الوجود :

وظاهر من هذه النصوص أن الأجزية فبها عاجلة ، تتحقق فى الحياة الدنيا دون حياة أخرى ، وعلة ذلك أن الوجود الفردى فى ذلك الفكر كان مقصورا على أيام العيش الدنيوى ، ولم يكن الموت غير نوم عميق بلا يقظة . وفى ذلك تقول التوراة :

« الكلب الحى خير من الأسد الميت » .

« الأحيـــاء يعلمون أنهم سيموتون أما الأموات فلا يعلمون شيئا وليس لهم من جزاء بعد اذ قد نسى ذكرهم . حبهم وغيرتهم قد هلكت جميعا . وليس لهم حظ بعد الى الأبد فى شىء مما يجرى تحت الشمس ».

« ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب اليها » .

« تخرج روحه وتعـــود الى ترابه . فى ذلك اليوم عينه تهلك أفكاره » .

دورة الفكر :

ولا شك أن هذا الفكر يجافى كل الافكار المعاصرة له كما أنه يجانب الفكر الدينى فى مجموعه فاذا أضيفت الى ذلك فرضية اعتقادية بأنه نتاج دين سماوى كان الظن بأنه أثر لعقل مختلط ونفس غافلة ادنى الى الجزم واليقين .

فالفكر الدينى عامة ، ومنه فكر اليهودية لا بد أن يلح على الجماعة بقيم التضامن والتكافل والمؤاخاة ، قصد التوجيه إلى صور من الانتشار بين الآخرين ، والتعريض بحالة الانحصار في الذات وتبديدها فى مسارب المطامع الخاصة . والى جانب ذلك فان هـــذا الفكر لا بد أن يفسح للانسان أفق الأمل عن طريق الاعتقاد بوجود حياة أخرى وجزاء آجل حتى يبقى على التوازن الاجتماعى ، حين يفلت مذنب من عدالة الارض أو يغلب الحق شرير كاسر .

ولا بد ان ذلك كان قوام الدين الموسوى لدى التبشير به وعنـــد الدعوة اليه بادىء ذى بدء، ثم قامت عوامل الشرخ النفسى والشطر الذهنى باظهاره فى شتات من الافكار المنكسرة على نحو ما سلف بيانه .

وأول ما بدأ ذلك كان بالظن ان الله سبحانه خاص بالاسرائيليين وحدهم ومن ثم فقد ارتسموه شيخا لقبيلتهم وتصوروه على صورة واحد منهم . وكان فى ذلك ما يكفى لحد عقولهم دون جلال الكون وسعة الحياة . فانحصروا فى الافكار القبلية حيث يعيشون وحيث أقام الله فى ســـكن توهموه . وتلا ذلك ظهور فكرة الشعب المختار ، بمعنى اختيار التشريف لا اختيار التكليف . فكان حتما أن يكون جزاء ذلك اسكانهم فى الارض الموعودة دون أن يؤخذ هـــذا الاختيار على معنى قيامهم بالواجبـــات والفرائض ، بتقدير من الفهم السليم .

وعند هذا الحد وبمقتضاه سقطت التكاليف . اذ تنصـل الوجود الفردى منها تخففا وتبرأ الوجود الجماعى عن عجز التحمل ، وبذا حلت فى المجتمع الاسرائيلى شيوعية الواجبات وفردية الحقوق . وغدا الفرد أحرص الناس على حياته ، فبالحياة الدنيا يكون وجوده وتكون غايات

الوجود وثماره، وبانتهاء هذه الحياة لن يكون ولن يجنى أية ثمرة أو فائدة. ومن ثم كان التهالك على غنمها دون الغرم ولذتها بغير انكار • جاء في التوراة من هذا المعنى :

« تمتع جميع حياتك الفانية بعيش مع المرأة التى أحببتها وآويتها تحت الشمس لتقضى أيامك الفانية فان ذلك حظك من الحياة » •

« كرهت جميع ما عانيت تحت الشمس من تعبى لأننى سأتركه لانسان يخلفنى » •

« ومن يدرى هل يكون حكيما أو أحمق مع أنه سيستولى على كل عملى الذى أفرغت فيه تعبى وحكمتى تحت الشمس ••• »

هكذا ، فرد لفرد وليس هناك مجموع • المرء يفكر فى لذته وشهوته ثم يفكر فى أنه سيترك ذلك لانسان لايعرفه ، ولا يخطر فى باله انه ميراث أجيال عظيمة من الجد والاجتهاد وانه بذار البشرية الى الآخرين أو بالاقل جسرها اليهم • مثل هذا التفكير لا يسعى بصاحبه الى الجماعة ولا يذهب بالجماعة اليه ، انما يعزل كلا منهما عن الآخر فيصبح الفرد جزيرة نائية ويصبح المجتمع هيكلا بغير روح وفكرة بلا موضوع ، كأنه منسجب يضع عليه الفرد أوزاره ثم يبكى لأن ماله من فضائل ـ ان كان ـ سوف يوضع عليه ليأخذه الغير •

وبهذا ذاب الوجود الفردى وامحى تماما ، مادامت فضائله لغيره ورذائله على غيره ، لا تعود هذه عليه ولا نعود نلك اليه •

بطلان الحياة :

ولقد كانت خاتمة المطاف ان ظهر الوجه الآخر للحياة فاذا هى باطلة وكل ما فيها ومنها باطل كذلك • عمل الصالح كعمل الشرير ، وحياة الانسان كحياة البهائم لاوجود حق ولا قيمة فاضلة ولا عمل طيب ولا شيء مفيد • ولهذا قال القائل فى التوراة •

« يوجد صديقون يصيبهم مثل عمل الأشرار • ويوجد أشرار يصيبهم مثل عمل الصديقين » •

« قلت فى قلبى ان الذى يحدث للجاهل يحدث لى أنا أيضا اذن فلم حكمتى هذه الوافرة » •

« انه ليس من ذكر للحكيم وللجاهل كليهما الى الأبد ، اذ فى الايام الآتية كل شيء ينسى ، وا أسفا يموت الحكيم كالجاهل » •

« قلت فى قلبى من جهة أمور البشر ان الله يمتحنهم ليريهم أنهم كالبهائم لان ما يحدث لبنى البشر هو يحدث للبهيمة ، وللفريقين حادثة واحدة . كما تموت هي يموت هو ، ولكليهما روح واحدة فليس للانسان فضل على البهيمة لان كليهما باطل . كلاهما يذهب الى مكان واحد . كان كلاهما من التراب وكلاهما يعود الى التراب » .

حالة الوجود :

وطالما كان الحكيم كالجاهل والفاضل كالسرير والانسان كالبهيمة لا فارق فى مصير ولا جزاء ، فقد انتهى الوجود وهو قائم ومات الانسان وهو حى ، وبذا أصبح الجانب المشرق فى الحياة باهتا ، وجذب الظلام فئران البشرية الى حيث ننشدون مع كاتب التوراة :

« كرهت الحياة اذ ساءنى العمل الذى يعمل تحت الشمس لأنه كله باطل وكآبة روح » .

« ما كان فهو الذى سيكون ، وما صنع فهو الذى سيصنع فليس تحت الشمس شيء جديد » .

لا صلاح :

ومؤخرا جدا قبل ظهور السيد المسيح بفترة قليلة ظهرت فكرة العالم الآخر والامتداد الى حياة غير الحياة بعد ما كانت الافكار الاولى قد انغرست فى النفوس وآتت أكلها فأصبح رضاء الله عند الاسرائيلى ثوابا يعطيه له فى الدنيا وغضبه عقابا يصبه عليه فيها . أى ان الوجود لم يزل فى هذا التقدير مبتسرا يحده الموت . وهو لذلك — دائما أبدا — عليق عيش وطفيلى حياة ينبت فى أرض غير صالحة لنبته ويعيش فى وجود يلفظ معناه .

المسيحية

حال الوجود عند الدعوة :

جاء السيد المسيح برسالته ابان انتشار مجموعة من الأفكار كانت خليطا غير متجانس من اللاهوت المصرى والفلسفة الاغريقية ومدنية الرومان ، فيما أصبح يسمى بالحضارة الهلينية . وليس من شك فى أن هذا الخليط قد يهيىء بمظهره المادي شكلا مدنيا لكنه فى نطاق الانسانية الحقة لن يعطى غير شلو حياة أو نثار وجود . وكان ذلك هو الشأن حقا .

فالوجود لا ينفتح ولا يرقى دون ايمان بذاته . وهذا الايمان بدوره لايمكن أن يكون شذور فكر . وانما لابد أن يكون لبا وأصلا ينطوى على القوة المفجرة للذات والطاقة الدافعة للنفس ، فى خصوبة وجدة وفاعلية . ولقد كان الاحساس بفراغ الوجود من محور يمسكه ذنبا يلح على عصر الميلاد ونقلا يرزخ على ضميره، حتى تفجر الضمير عن رسالة السيد المسيح فمحى الذنب وامتلأ الفراغ .

حركات الاصلاح :

واذ كان من شأن الباحث ألا يغمط التاريخ حقا ، فقد تعينت الاشارة الى ما سبق الرسالة المسيحية من حركات ثورية كانت تستهدف ما استهدفته تلك الرسالة ، وان خبت فلم تحقق شيئا لانها كانت الى ردود الفعل أدنى منها الى مخاض الخلق .

فمن جانب السيادة قام بعض القياصرة باصلاحات تشريعية قصد انشاء طبقة جديدة من الناس . لكن هذا القصد كان محدوا بتثبيت السلطان دون أن يعنى بالوجود الفردى حقا . ومن هنا كان أشبه بقوالب تحاول تشكيل هذا الوجود بما يلائم مزاج الحاكم ولم يكن رغبة فى اصلاح صادق .

ومن جانب الكافة قامت ثلاث ثورات للعبيد • ظهر « اونس » قائد ثانيها لاتباعه في صورة النبي المرسل • وكان لقائد الثالثة « سبارتاكوس » في نفوس مقوديه شأن كذلك . غير أن هذه الثورات على ما ظهرت فيه من ضراوة لم تضف الى الوجود الانساني قيمة جديدة واحدة ، وبالتالي فانها قصرت دون هزه أو حتى المساس به •

أسباب الفشل :

ويعود أمر هذا الاخفاق بالنسبة للجانبين الى أن جميع الحركات كانت تعبر عن انقلابات السلطة ، ولم تكن تعني شيئا فيما يتعلق بثورة الفكر أو تقييم الوجود • وسواء أكانت في صورة تشريعية أم كانت تمردا عاما فالنتيجة واحدة هي رغبة الانفراد بالسلطة أو الوصول اليها بحيث يحل أشخاص بدل أشخاص آخرين أو يقوم نظام على أنقاض نظام غيره مع بقاء الهيكل الاجتماعي على ما هو عليه •

وثم أمر آخر أدى الى ذلك الاخفاق بقدر ما هيأ للرسالة المسيحية أن تنجح • فقادة الانقلاب كانوا في نظر الجماهير أبطالا مرهوبين أكثر منهم حقائق مرغوبة • ومن هنا كان عسيرا على الفرد العادي أن يتشبه بالقائد أو يتشرب روحه بحيث يصبح على نهج المثل • هذا فضلا عما كان يؤدي اليه بريق السلطان وهالة البطولة الجثمانية من رفع للقائد حتى أعلى الأبراج واستحالة الوصول الى مستواه البطولي •

رسالة المسيح :

وجاء السيد المسيح حينذاك برسالة ذات مفاهيم ودلالات جديدة ، ومن ثم كانت هذه الرسالة أعظم ما عرف الوجود البشري حتى ذلك الوقت •

لقد كان السيد المسيح ثائرا على النفس الدنية والوجود المغلق والروح الخبيث ، رسولا للبر والحب والسلام ، داعية لالغاء الشكل وتحرير الفكرة ، خصيما للحصر واليأس والجمود ، معلما لاسلوب جديد في الحياة راغبا عن الحكم والسلطان والتسلط •

ولقد عاش دعوته وعاش رسالته ، فكان بين الناس في كل مكان مثلا نابضا بقيمه ، وكان وجوده عين ما دعا اليه .

ومن هنا تحقق الامكان ، وأصبح بالسيد المسيح وجودا وواقعا وحياة • بعد أن كان في أفضل صورة مجرد هدف بعيد يسعى اليه

الانسان – ان سعى – لاهثا فى يأس يملؤه ، ويشعر معه بقصر الجهد وقصر العمر دون الوصول اليه ·

وكان شأن المثل المتحقق والقيمة الحية والامكان الواقع كشأنه فى أى زمان ومكان اذا ما أحس به كل فرد على مستواه وأدرك معناه على قدر فهمه ، أن اشتعل وجود الاتباع والحواريين برغبة الوصول الى ذات المستوى وتفجير كل ما فى امكانهم من طاقات لتحقيق حياة راقية كحياة المثل ·

قيمة الوجود :

وهكذا انصبت رسالة السيد المسيح وتعاليمه على تقييم الوجود الفردى والارتفاع به الى درجة يكافىء بها الكون بأسره · ثم تحقيق ذلك كله فى حياة تصبح للآخرين مثلا واقعا · ولقد قرع سمع العالم وهز الوجود الفردى هزا عنيفا حين تساءل : –

« بماذا ينتفع الانسان اذا كسب العالم كله وخسر نفسه .. »
لا شىء ·

ثم حين عقب :

« وماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه » . لا شىء كذلك .

الوجود الفردى يقابل الوجود العام · والفرديكافىء الكون بأسره· تلك هى أهم ركيزة من تعاليم السيد المسيح · تحفز الانسان الى حياة أفضل وتجلو منه انسانا جديدا ، يجعل لوجوده معنى ثم يحيا هذا المعنى حقيقة ·

الكسب الحقيقى :

هناك أكثر من ذلك ، لقد أعطى السيد المسيح للانسان أملا جديدا زاهيا هو بحسب التعاليم الكنسية أن يستحيل الى اله لو أراد · وبغير هذا المعنى ، أن يصل الى مستواه السامى مباشرة · فقد جاء فى انجيل يوحنا على لسانه :

« الحق الحق أقول لكم · من يؤمن بى فالاعمال التى أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها » ·

وطريق ذلك كما جاء فى الآية هو الايمان بالسيد المسيح – فكرة

وحقيقة ـ ثم العمل على حسب تعاليمه وتبعا للناموس • وكان المدار هنا وهناك عملا صالحا وزكاة للنفس فى تعاون جدى مع الجماعة •

فكأنما لب الرسالة المسيحية دعوة الى تحقيق الذات داخل نطاق موضوعى من قيم الجماعة ، فى سماحة الشعور بالعزة ، وبغير سماجة التطبيق الحرفى • فقد « **خلق السبت للانسان ولم يخلق الانسان للسبت** » • « **وليس ما يدخل الفم ينجس الانسان بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الانسان** » •

ذاتية الوجود :

الامر للانسان فى وجوده فقد خلفت له الحياة وليس العكس • وبفعله هو لاغير يضفى عليها النور والطهر والصفاء أو يجعلها رجسا ودنسا • بهذا انفتح الوجود الفردى بصورة جديدة لم يعهدها من قبل ، وانفسح أمامه بالتالى أمل مشرق ، أصبح الطريق اليه ممهدا بفكرة ارتقاء الذات وتهذيبها • وقامت السماء بدور مكمل فى فتح الطريق للوجود حتى النهاية ، فهى لمن لا ينال حظه من الدنيا عوض عنها وبديل لها • وبذا امتد الوجود وامتد حتى وصل الى عنفوان امتداده وقوته •

ردة الفكر :

ومهما يكن من أمر الفكر المسيحى ذاك بالنظر اليه من جانب الدين أو من جانب آخر ، فقد نكص على عقبيه ولم يكد يشب على قدميه حين عارضته فكرة مؤداها ان الخلاص يكون بالايمان لا بالعمل • فقد حدث بعد انتهاء رسالة السيد المسيح أن قام بولس الرسول بدور كبير فى التبشير بها وخاصة بين غير اليهود من الامم • واذ كان مشربا بالثقافة الهلينية بكل ما فيها من خليط ، وكانت دعوته فى التبشير خفية تنتقل من فرد الى فرد ، فقد كان من المحتم أن تتداخل بغيرها من العقائد والافكار خاصة انها لم تكن واضحة محددة ولم تكن مقننة فى نصوص تلفظ عنها أى دخيل •

وربما كان شفيعا لهذا الفكر فى الظهور ان دعاة الرسالة المسيحية اهتموا كثيرا بأن يؤمن الناس بالسيد المسيح ، ومن ثم ألحوا فى دعوة الايمان على حساب الاعمال ، وأهدروا الناموس فى سبيل الذيوع •

ولهذا السبب كان بولس الرسول يكرر قوله ان البر بالايمان فحسب،

والايمان نعمة ، والنعمة خلاص ، والخلاص اختيار من الله منذ الازل ٠ جاء فى أسفار الانجيل :

« ان الانسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بايمان يسوع المسيح »

« الخطية لن تسـودكم لانكم لستم تحت الناموس ٠ بل تحت النعمة » ٠

« كل ما ليس من الايمان ٠ فهو خطية » ٠

ومن الواضح أن فكرا كهذا لا بد أن يكون قد نسأ على مراحل من التفاعل بين الداعى والمدعوين ٠ طبع الدعوة آنا فآنا بأحوال النفس لدى الجانبين ٠ فهو أول الامر دعوة الى الاله ، ثم بعد ذلك دعوة الى الايمان بالمسيح ٠ وتلا هذا تفضيل للايمان على الاعمال ، ثم الحاح على هـذا التفضيل واعتباره الوسيلة الوحيدة للخلاص ٠ وأخيرا وعند اليأس من جمع المؤمنين ، ينضح السلب والتسليم ظنا بأن الله قد اختار الابرار ، وان الاعمال أكملت بعد أن جفت الاقلام وطويت الصحف ، فلم يعد من ارادة الانسان أن يؤمن وهو غير مختار لذلك ، أو يبر واسمه فى سجل الاشرار ٠ وبهذا طفح التشاؤم والشعور بالجبر ، وأمحى كل تفكير فى محاولة الخيار وتزكية النفس بالطموح والرغبة والارادة ٠ وظهرت فى الاسفار هذه النصوص :

« المختارون نالوه » ٠

« الأعمال قد أكملت منذ تأسيس العالم » ٠

تنافس الافكار :

ومن الجدير بالذكر ان هذه الافكار لم تكن وحدها على صفحـات الوجود ، انما كانت ثم أفكار أخرى على الضد منها تماما ، غير ان الغلبة كانت للجانب السهل على النفس والشريعة المسقطة للارادة والنـاموس الذى لا يكلف الانسان غير ايمان مجرد من أى جهد ٠ وعلى سبيل المثال جاء فى رسالة يعقوب :

« الايمان بدون أعمال ميت » ٠

« الاعمال أكمل الايمان ٠ بالاعمال يتبرر الانسـان لا بالايمان وحده » ٠

هذا فضلا عن أن أقوال السيد المسيح صريحة ، من احتسـاب الجزاء على حقيقة الاعمال ، وبميزان الحق وحده ٠ فقد جاء فى الانجيل :

« فيخرج الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة • والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة » •

« تعرفون الحق • والحق يحرركم » •

وانما كان من الطبيعي بعد تداخل العقائد ، أن يتسرب ناموس الايمان الى الاناجيل التى كتبت بعد ذيوعه وانتشاره ، فاذا بهذه الاناجيل تتضمن فقرات تفضل الايمان على الاعمال زعما بأن الخلاص به وحده ، الى جانب ما تضمنته من تعاليم أخرى تعلى جانب الاعمال وتقرر أن الحساب والجزاء يكونان على مقتضاها • جاء فى انجيل يوحنا على لسان السيد المسيح :

« لا يقدر أحد أن يقبل الى ان لم يجتذبه الأب الذى أرسلنى » •

« لا يقدر أحد أن يأتى الى ان لم يعط من أبى » •

« هذا هو عمل الله • ان تؤمنوا بالذى هو أرسله » •

نهاية المطاف :

وهكذا استقر الفكر فى الوجود، فأصبح أهم قيمة وأظهر محاوره، ثم ظل يستشرى حتى وصل الى حد يمحو فيه خطايا البشر جميعا • فمجرد الايمان بالسيد المسيح فى ثالوثه المقدس يهب الانسان نعمة الخلاص من ذنوبه والخلاص من خطيئة البشر • وتكرار الايمان وتوكيده يؤدى بالتالى الى محو الذنوب وغفران الخطايا • وبهذا لم يعد أمام من يؤمن بمثل هذه الفكرة أدنى سبب يدفعه لكى يكبح جموح نفسه ويهذب شهوات جسده ، الا أن يكون ذلك انسحابا من الوجود كله واسقاطا تاما له •

فاستوى فى النظر رجل يعمل للحياة ورجل لايعمل أبدا • بل ان هذا الاخير قد يفضل ان أعلن ايمانا خائرا عليلا كايمان الاطفال والعجائز، ثم يظل يجدده دواما بألفاظ لا تعدو حد الشفاه •

وبهذا بطل العمل والجهد ، وأمحت معانى الارادة والمثابرة ، وتبخرت أفكار الحرية والاختيار • فانغلق وجود التبع جميعا من بر منهم والمخطىء ، راهب الدير وانسان الحياة •

الاسلام

البيئة الفكرية :

ازاء انغلاق الوجود كافة بعد الرسالة المسيحية ، كان من الضرورى أن ينفتح مرة ثانيا بارادته أو بهدايته .

وجاء الفتح هذه المرة من جزيرة العرب .

ومن هذه الجزيرة قبل بعثة محمد عليه السلام ، لم يكن للعرب من فكر خاص ، فيما خلا جبرية صارمة فرضتها عليهم بيئة جافة قاسية . وحول هذه الفكرة الحادة كانت تتردد أصداء من الفكر الفارسى والفكر الهندى . هذا طبعا الى جانب الافكار المنقولة عن اليهود من ناحية واللاهوت المسيحى من ناحية أخرى .

وبينما كانت هذه الافكار جميعا ترى ان الانسان أشرف الخلق وأفضله وانه قد يتناسخ فى الحياة المرة تلو المرة ، جزاء وفاقا كانت ترى كذلك ان « الاول لم يترك للآخر شيئا ، وانه « لا جديد تحت الشمس »

وقد ظهر ذلك بأوضح تعبير على لسان الشاعر عنترة العبسى قبل الاسلام حين قال .

« هل غادر الشعراء من متردم ... »

يعنى بذلك ان الشعراء سبقوه الى كل أغراض الشعر فما يتهيأ له أن يأتى بجديد .

أثر البيئة :

مثل هذه الافكار المتضاربة لا تكاد تفتح وجود المرء أو تسمح له أن يفتح وجوده حتى تغلقه عليه وتوصد دونه منافذ الارتقاء ، طالما انه عبث ونافلة ، لا يؤثر وجوده فى الوجود العام ولا يضيف جديداً اليه .

فالفرد بأفكار كهذه يأتى الى الوجود سقطا بغير ضرورة لازمة أو

معنى معقول أو هدف محدد • وهو يعيش ما عاش منعزلا عن نبع وجوده بعيدا عن رحمة الهه • يقضى اليوم تلو اليوم فى فراغ الحياة مقتلة للوقت ومضيعة للعمر ، ثم يذهب بعد ذلك كأنه ما جاء ، لا خبر ولا أثر •

أفكار الاسلام :

وعند ما انتشرت رسالة محمد عليه السلام ، وعم الاسلام أفكار المشرق جميعا ، ارتد الامر للفطرة فظهرت فكرة التجربة مرة أخرى على نحو أسمى وأجل •

ومفاد ذلك أن الحياة سرمد وان الوجود واحد من مظاهرها . ومن جانب آخر ، أن كافة أوضاع هذا الوجود ليست غير نتيجة جهد سابق قصر أو كمل أو تراوح بين ذلك • وهو بالتالى سبب لوجود تال يتوقف على نتائج جهده •

حقيقة الوجود :

فالوجود الفردى فى الرأى الاسلامى بلاء وتجربة • وهو معبر الى حياة أخرى أرقى أو أشقى. هذه الحياة الاخرى هى الاصل ، وهى كذلك مطمح الوجود • ومن ثم كان على المرء أن يسعى جهده لينال فيها حظه دون أن ينسى نصيبه من الدنيا • وبمعنى أوضح أن يكون احتمال لهب التجربة سبيلا لتلك الحياة الاخرى ، بحيث يكون تجنب اللهب عجزا عن مواجهته لا فضلا ، واعتزال الدنيا خوفا من لقائها لا زهدا •

مجال الوجود :

فالوجود امتداد حدد وضعه على الارض جهد سبق • وهو بعد مستمر فى تسامقه حتى يصل الى السماء • وهو كل لا يتجزأ ولا يفضل فيه جزء آخر ، انما يحدد كل ظروف الجزء التالى له •

وفى القرآن الكريم كما فى الاحاديث الشريفة ، وردت نصوص تفيد هذا المعنى ثم تكرره وتؤكده •

حدود الوجود :

فوجود آدم وزوجه على الارض انما تحدد وضعا بما خالفا به تكليف الله سبحانه ألا يفعلا أمرا ، هو الاكل من شجرة محرمة . ووجود كل آدمى بالتالى انما يتحدد على هذا النحو ، وبمثل ذلك الحال ، لان وزر آدم وزوجه مقصور عليهما لايعداه الى الغير ، ولأن خطابهما بالتكليف لم يمنع خطاب بنيه به .

فقد وردت قصة آدم فى القرآن الكريم فى مواضع عدة على تواتر ذلك المعنى . منها ...

« ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيهما تموتون ومنها تخرجون .

يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقــــوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنــــة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنــا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

ومنهـــا :

« ... فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنـــا اهبطوا بعضــــكم لبعض عدو . ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنـــا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

دلالة قصة آدم :

وأيا ما كان آدم ، شخصا أو رمزا ، وكيفما كانت الشجرة الممنوعة، أمرا أو ثمرا . فان جوهر القصة واضح ومحدد فى البيان :

أولا – لقد خالف آدم وزوجه تكليفا ، فلم يحسنا اجتياز تجربة ابتليـ بهـــا .

ثانيا – رتبت تلك المخالفة وجودهما على الارض وضعا وظرفا .

ثالثا – تحدد هذا الوجود بحين معين .

رابعا – تاب الله على آدم مما أثم . غـــير أن ذلك لم يقه تجربة الوجود الدنيوى ولم يعده الى ما كان فيه قبله ، من حيــاة الدعة والبراءة غير المكلفة .

خامسا – خوطب بنوه ومن يرمز اليهم بتكليف خاص بكل .

التجربة والرغبة :

فكأنما فرض الوجود الدنيوى قصور فى التزام أمر،ورغبة فى حياة التكاليف . وعلى قدر القصور وطبيعة الرغبة تكون حدود هذه الدنيــا ونطاق التجربة الجديدة ، على نحو يظهر من آيات القرآن الكريم وأحاديث السيد الرسول .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

آية تفيد معنى التجربة . وتحدد صور هــذه التجربة ان كان ما أصاب الانسان خيرا أو كان ما أصابه شرا .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » .

آية تؤكد فكرة التجربة ، وتبين انتشار مجالها الى الاموال والانفس، أى الى كل ما يكون عناصر الوجود الفردى .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

آية تهدف الى أن يسوى الانسان بين مستقبله وحاضره ، فلا يسعى الى خير الآخرة باهمال الدنيا . انما عليه أن يرعى وجوده فى هذه الحياة وتلك رعاية كاملة بحيث تكون حياته الدنيا سبيلا الى حياة الآخرة .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » •

حديث شريف يفيد معنى اتصال الوجود واستمراره الى ما بعد الحياة • كما يدعو الى العناية بكل جزء من هذا الوجود عناية حذر واستعداد •

***

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » • آية توضح مكان الرغبة فى اختيار حدود التجربة ، هل هى زينة الدنيا التى تغرق الارادة فى ملذات الحياة ، أم هى بساطة واعتدال يدع الارادة على توازن من التصرف •

((فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم • انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون)) •

آية تبين أن مظاهر الحياة وزينتها ليست على الدوام حسنا لمن أوتيها اذ قد تكون عذابا لهم فيها وفى الآخرة • بمعنى اتساع نطاق الاختبار الى صعوبة وعسر يتأكد معهما الاخفاق فى اجتيازه •

تقدير الفكر :

وفى تقديرنا ان هذا الفكر أو هذا الواقع بمعنى أصح أسهل وأعظم تفسير للوجود الفردى • وبه انفتح هذا الوجود بما لا سبيل معه الى اغلاقه أبدا • فهو يرفعه الى ذرا السماء ثم يطالبه بالعمل ، كفاء ما وهب

ولقد سبق بيان مدى تأثير فكرة التجربة عموما على السلوك البشرى اذا تأصلت فيه ، فبها وحدها يمكن للسلوك أن يقوم ذاته وأن يثقف نفسه وفضلا عن ذلك فان الفكرة فى التقدير الاسلامى تلقى على الوجود ضوءا باهرا يبين حدوده وظروفه وأوضاعه على نضو يظهر مما يلى :

أولا ــ ان الانسان هو الذى رغب فى حياة التكاليف • وهو الذى تعرض للتجربة بارادته •« **انا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »** • ومفاد ذلك أن الوجود ليس سقوطا أو تدهورا • كما أنه ليس أمرا غامضا فرض على الانسان دون أن يسهم فى شأنه أو يكون له خيار فيه •

ثانيا ــ ان الوجود حلقة من حياة مستمرة عبر الزمن ، له ما يسبقه وله ما يلحقه ، فهو جزء من كل متأثر به ومؤثر فيه • وفهمه يقتضى معرفة كل ما يتصل به من حيوات •

ثالثا ــ انه لا معدى من الرضاء بالواقع على ما هو عليه • طالما كان لارادة الانسان دخل فى وقوعه على نحو ما وقع ؛ وسواء اتضح للانســان فعله الذى سبق به الخيار أو لم يتضح •

رابعا ــ ان السبيل أمام الانسان لتغيير واقعه أو تحسين حاله يكمن فقط فى الفعل الارادى يزكى به نفسه فى خلق أفضل ونهج أكرم، بمعنى ان انتظار تحسن الحال دون عمل ايجابى وكذلك الالتجاء الى مجرد الدعاء والتمائم والتعاويذ غير مجد فى التغيير شيئا •

خامسا ــ ان الموت ليس عدما ، لكنه منفذ الى حياة أخرى تتأثر بالحياة الدنيا وضعا وظرفا وحدودا •

***

وبهذا التكامل لفكرة التجربة يزول التناقض المزعوم فى الحيــاة الدنيا • ويكتسب الالم واليتم والعذاب والفقر والسلطان والمرض ، وما الى ذلك ، معانى جديدة ، فالوجود مطهر لحياة سابقة ومخبر لحيــاة لاحقة ، وهو من ثم مقادير متداخلة يختلط فيها الجزاء بالبلاء •

حدود التجربة :

واذا ماعدونا فكرة التجربة كمنارة تهدى الانسانية عموما ، لنبحث فى كنه التجربة وحدودها ، راعنا ان الفهم الاسلامى جعلهــا ــ حقيقة ــ تجربة كاملة شاملة • فعلاقة الوجود العام بالوجود الفردى ، فيما يتعلق بالظروف التى تحيط الانسان والصورة التى ترتسم بها ذاته وتتشكل ، ليست ــ فى الفهم الاسلامى المتقدم ــ جبرا للسلوك بقدر ما هى أدوات التجربة وأسلوب الاختبار . وللفرد ان أراد نجاحا أن ينجح رغما عنها ، وله ان لم يشأ ذلك أن يفشل دونها •

فكأن حدود التجربة ــ على هذا المعنى ــ هى بذاتها حدود الحيــاة حول الفرد ، قبل أن يستخلص لنفسه ذاتا مريدة تقفزالاسوار • وتتطاول الى ما وراءها من عزم •

وقصور الطاقة أو ضعف الامكانيةمحسوب للفرد فى محاولتهاجتياز التجربة ، وكذلك الشأن فيما يحيق به من مصائب • فليست هذه جزاء فحسب ، وليست تلك قوالب الجبر ، وانما هما على نحو ما سلف مقادير من بلاء وجزاء يتخذ أكثر من صورة تتشكل بها الحياة شيئا فشيئا فى تجاوب بين الكون والذات ، تتوالى على مدار الاحداث • فكأن الحيــاة على مفهوم الفطرة ، مجال حى لاعداد النفس اعــدادا صحيحا كامــلا • شأنها فى ذلك شأن تمرين شاق يهيىء به امرؤ نفسه لاجتياز بطولة ما، والفوز بنصرها •

طاقة الوجود :

والمعيار هنا طاقة الانسان · وبمعنى أدق ، قدر ما يتحمل من مشاق الامور وتقلب الاحوال وفجاءة الحوادث وتنوع المقادير وخيبة المسعى ·

«لا يكلف الله نفسا الا وسعها · لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت»

((لا نكلف نفسا الا وسعها)) .

واذ كان من طبع الانسان أن يقصر جهده دون الكفاح الجدى ويحد طاقته عن جهاد النفس اللاهية ، فان الله سبحانه عارف بما قصر من جهد وما حد من طاقة ، قادر على قياس القصور وبيان الحد ، قياسا مضبوطا وبيانا لا شك فيه ·

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ·

بيان الجزاء :

ولما كان تصرف الانسان مرتدا بعد ذلك الى وجوده ، منعكس عليه، مؤثر فيه ، فان الذى يقصر فى بذل طاقته أو يجفل عن بيان حدوده ــ غشا أو اهمالا ــ انما يحتمل وزر ذلك وحده ، فلقد ظلم نفسه لا غير : وأساء الى وجوده دون سواه . وعلى هذا المعنى جرى التعبير الاسلامى فى عديد من الآيات القرآنية :

((ان الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون)) .

« ومن يعمل سوءا يجز به » ·

« وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ·

((أولئك الذين خسروا أنفسهم)) .

امتداد الاثر الوجودى :

وتأسيسا على ذلك يتعين أن تفهم النصوص التى تفيد معنى امتداد أثر الوجود الفردى الى سواه على غير ما انتهى الفهم من الاسرائيلية · جاء فى القرآن الكريم :

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا)) .

وفى الحديث القدسى :

« انى أنا الرب المعبود أجازى الاولاد بما تصنع الجدود » ·

ومفاد النصين على ضوء ما سلف ، وبتقدير فكرة الجزاء والبلاء ، أن فجر الوجود قد يصل الى ذرية صاحبة ــ جزاء له على ما اقترف من اثم ، وبلاء لهم يختبر قدرتهم على اجتياز السوء • وبالتالى ، فان طهر الوجود قد يمتد الى ذرية صاحبه مثوبة له فيما أحسن من عمل، وبلاء لهميبين حالتهم عند اجتياز الحسن • فكأن هذا وذاك ، بصدد الاثر الوجودى ، كالميراث المادى والخواص الموروثة سواء بسواء •

والامر من بعـد ، متروك لكل وجود فى الذرية ، يحسن أو يسىء ، يفجر أو يطهر • وهو بفعله يحدد لنفسه ، بكل مقـدرات وجوده وكل طاقاته سبيله فى الحياة الآخرة وجزاءه هنا أو هناك •

ذلك ان تقدير الوجود فى مساءلته يقوم على نصين : ــ

« **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » •

« **وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه** » •

وبهذا يكون امتداد الاثر الوجودى الى الغير ان سوءا وان حسنا ، بلاء لهذا لا جزاء ، واختبار له لا قصاص •

منار الوجود :

ولقد أوتى الانسان من جانبه ارادة يعرف بها حقيقة وجوده ، ثم يعلم قدر قصوره ووضع حدوده •• ذلك هو العقل • به يحسن الى وجوده أو يسىء ، يعدل مع نفسه أو يظلم •• ان اتخذ الهه عقله عدل ، وان اتخذ الهه هواه خذل •

والامر ــ من ثم ــ يقتضى ميلا الى العقل يجلوه بالتفكر والتـدبر والتأمل • وميلا عن الهوى يفتره بالسيطرة والاعراض والاسماء •

ومن هنا ، قضى الاسلام بتبجيل العقل تبجيلا تاما وتقديس حركته، ما كان هو وحده سند الانسان فى اجتياز البلاء ومركبه فى عبور الحياة • وبمعنى آخر ما كان هو محك الاختبار وغايته •

وفى القرآن الكريم من آيات احترام الفكر والدعوة الى أعماله ما لا يدخل تحت حصر • فكثيرا ما تدعو آيات القرآن الكريم الى التفكر والتدبر والتعقل • وهى دعوة تفرض على المتخلف عنها جزاء يصل به الى أسـفل دركات الخلق ، حيث تنحسر عنه الانسانية بكل مقوماتها •

« **أو لم يتفكروا فى أنفسهم** ••• »

« **ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ••• »

« وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ٠

وفى الحديث الشريف دعوات ملحة الى اعمال الفكر ، واعتباره أساس المساءلة :

« الدين هو العقل ٠ ولا دين لمن لا عقل له » ٠

« أول ما خلق الله العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ٠ ثم قال عز وجل وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب » ٠

« ٠٠٠ عملوا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون » ٠

وفى الحديث الشريف كذلك أكثر من الدعوة الى اعمال العقل ، تفضيل ذلك على العبادة ٠ اذ قال الرسول عليه السلام « **تفكر ساعة خير من عبادة سنة** » ٠ ثم تفضيل على الشهادة فى سبيل الله ، وهى أسمى الغايات الاسلامية ، فقد قال عليه السلام « **يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء** » ٠

سبيل الوجود :

بهذا يقطع الفهم الاسلامى فى ان البينة وحدها ــ بمعنى المعرفة الواعية ــ هى سبيل الوجود ٠٠ « **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة** » ٠

ففى القرآن الكريم :

« يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات »

وفى الحديث الشريف :ــ

((٠٠٠ انما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى عند ربهم على قدر عقولهم)) ٠

الفكر الوجودى :

وليس من شك فى أن دعوة التفكير هذه لابد أن تصحب الانسان ــ بادىء ذى بدء ــ الى ذاته ونفسه ، ثم تنتقل بعد ذلك الى الكون ٠ اذ لابد أن يتدرج التفكير من الوجود الفردى الى الوجود العام ٠

ومن هنا كان الفكر الاسلامى دعوة مباشرة الى الفكر الوجودى بداءة ثم الى فكر الماهية ــ بعد ذلك ــ لمن يشاء سعة فى البحث ٠

والذى يقرأ قول الرسول عليه السلام « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » ٠ يجد فيه شعار سقراط مفرغا فى القالب الدينى ٠

أثر الفكر :

ولقد لازم هذا الفكر الخصب حضارة العرب فى عهدها الاول ،فكان ارهاصا بتيار جديد شمل كل مناحى التفكير .

ففى الشعر ظهر أبو العلاء المعرى ليقول :

« وانى وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل »

فكأنه يرى ـ بقوله هذا ـ انه أفضل من سابقيه،بما يعنى ان وجوده أضاف الى الوجود كثيرا ، وانه ـ قبل ذلك ـ كان ضرورة ولازمة .

***

وفى الفلسفة ظهرت أسس جديدة للتصوف صبغته بالاسلاموشكلته فى شكل جديد من الحضارة العربية . فلم يعد التصوف اعتزالا للحياة وانسحابا من الوجود ، بل فهما لهذا ودعوة لتلك ، يؤسس كلا منها على أساس جديد .

وكان ركيزة الاساس حديث للرسول عليه السلام قال فيه :

« **اعرف نفسك تعرف ربك ، وأعرفكم بنفسه أعرفكم بربه** » وهو حديث ـ لا شك ـ مكمل للحديث السابق « **رحم الله امرأ عرف قدر نفسه** » ينقل الوجود على ما نوه عنه ـ من الذات الى الكون نقلا طبيعيا لاطفرة فيه .

لهذا كان التصوف الاسلامى رفعة للذات وعزة ، لانه يقابل الكون بالفرد ـ مقابلة عقلية ، ترتكز على الدين ، وتستمد من الفكر أسبابا لها .

والنزعة الصوفية الاسلامية نزعة تقوم على الذاتية مذهبا ، بمعنى انها لا تعترف بوجود حقيقى الا للذات المفردة . وعن طريق هذه الذات يبدأ استشعار الكون ، ثم الامتلاء به شيئا فشيئا ، بحيث يحل الوجود الذاتى ـ على درجات الامتلاء ـ محل الوجود الكونى .

وثم كثيرون حيوا وجودهم بالفعل على هذا النحو ، حتى وصلوا الى أعلى درجة للذاتية ، وهى ما أطلقوا عليه تعبير الانسان الكامل . وعند هذا الحد قال الحلاج ـ أحد الرواد ـ أنا الحق ، ثم قال :

« أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا »

وبغير تعرض للنظريات الفلسفية التى رأت فى ذلك ايمانا بما يسمى « وحدة الوجود » أو « الاتحاد بين المخلوق والخالق » فان هذا القول يعبر عن الانفتاح الكامل بين الانسان والخالق ، أو بمعنى آخر ، بين الذات

والكون ، بين الوجود الفردى والوجود العام ، فيفتح وجود الانسان من كل جانب ٠

نتائج محددة :

على أن أهم نتيجة وصل اليها هذا الفكر الثائر حقيقة كانت نقله للأمر من مجال القول الى مجال الفعل ، حين انتهى الى أن التصوف يؤدى فى آخر درجاته وأعلاها الى سقوط حواجز المادة والنظم الكونية الثابتة فى أغوار من الارادة بحيث لا يتقيد بها الفرد ولا تحد من تصرفاته ٠

فالمتصوف الكامل — على ما قيل — لا يعرف تغير الطقس صيفا كان أم شتاء ، ولا يعجزه تقل المادة عن أن ينتقل من مكان الى مكان كيفما يشاء ووقتما يريد ٠ ولا يقف دون الزمن جامدا بوقته ، بل انه يبرق خـــلاله كلما عن له أن يتحرك أو يحركه ٠ وتطبيقا لذلك فقد قيل : ان المتصوف يستطيع احضار فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ٠ كما قيل أن فى مكنته أن يرى الماضى جميعه وأن يطلع على المستقبل بأسره٠

وبصرف النظر عن مدى صدق تلك الاقوال والتنقيب عن أمثلة من الواقع تؤيدها أو تنفيها ، فان مجرد بزوغها على ســـطح الفكر يكفى فى ذاته تدليلا على ما انتهت اليه فكرة الوجود فى التصوف الاسلامى من فتح آفاق لا تحصى ولا تحد أمام الذات البشرية الطامحة ، تحاول أن تبلغ منها ما تستطيع به أن تتفوق على قواها وأن تعلو على قدرتها ، ثم تسمو بهــذا وذاك على قيود المكان وعلى حدود الزمان ٠

تلاقى الافكار :

وهكذا أدى انفتاح الوجود — فى آخر صوره — الى نتيجة عمليــة تؤيد جدواه وتحقق أغراضه فى صورة واضحة حاسمة ٠ وما أقربه بهذه النتيجة الى قول السيد المسيح عليه السلام « الحق الحق أقول لكم من يؤمن بى فالاعمال التى أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها »٠ فكأنما الفكرتان رافدان من نبع واحد ، توحى الى الانسان اندفاعا مع تيارها حتى غاية بعيدة من السموق والرفعة ، ثم تهبه على ذلك جزاءين :

✻ فالفعل جزاء نفسه ، لما يؤدى اليه — حتما من ارتقـــاء الذات وعلوها ٠

✻ وهو من جانب آخر ، سبيل لتخلص الانسان من قيـــود المادة وجمودها ٠

✻✻✻

وهكذا أصبح الوجود الفردى ـ بالفكر الاسلامى ـ ضرورة لازمة كما أصبح ذا معنى ومغزى ·

وكان ذلك أخر حلقة من حلقات تقدم الفكر البشرى ، فى نطاق سعيه لفهم الحقيقة وادراك الغرض البعيد من وجوده ، وبه انتهى الى أن هـــذا الوجود جزء من كل ، وان ارادته أسهمت فيه وجودا وحدودا ، وأن مجال الوجود جماع مقادير يختلط فيها الجزاء بالبلاء ، وان على الانسان واجب السعى ـ عن بينة من عقل واع ـ الى تزكية نفسه علما وخلقا ، بكل طاقته وكامل قدرته ، حتى يرقى فى ذاته وفى مدارج الكون ، فيكون قد عبر البلاء بصبر ونال الجزاء عن خير ·

***

تقـــــدير

ان استعراض تاريخ الفكر ، وبالتالى استعراض تاريخ الوجودية فيه يبين بجلاء ان الوجود ـ سواء أكان فكرة مجردة أو تطبيقا فى الحياة ـ شق مجراه خلال دورات متتالية من الانفتاح للكون بحيث لا يصبح ثمة حاجز بين الوجود الفردى والوجود العام ، ثم الانغلاق دونه ، بما يحصر الذات المفردة داخل نطاق من العزلة التامة ٠

وفى الحالة الاولى ، كانت البشرية تثرى وتنضر حين تزدهر فيها الحياة وتتفتح نتيجة لارتقاء الوجود ـ خاصة وعامة ـ الى آفاق الرفعة وذرا السموق ٠ أما فى الحالة الثانية ، فقد كانت ذات الحياة تذبل وتجدب كأثر طبيعى لتفكك عناصرها فى ذوات منحصرة متفرقة ، تدور حول نفسها دورات مهتزة تؤدى بها ـ لا محالة ـ الى مهاوى الانحطاط ودياجيره ٠

***

الوجود في الفكر الوسيط

الوجود في الفكر الوسيط

ماأشبه الفكر البشرى حين يصعد شامخ قممه ثم يهبط الى واطىء سوافحه بذلك الرجل المسمى سوزيف فى الاسطورة اليونانية القديمة ٠

تقول هذه الاسطورة ان الآلهة قضت على سوزيف بالمشقة والعذاب فهو دائما أبدا يدفع حجرا أمامه ، من سفح جبل حتى قمته ، وما أن يصل به الى تلك القمة حتى ينحدر الحجر الى السفح فيدفعه ثانية ثم ثالثة وهلم جرا ٠

والفكر البشرى كذلك ٠ فهو مدفوع الى الارتقاء والتفوق بمقتضى تلك السورة التى تتأرجح فى أعماقه وتتوهج فى ذهنه ٠ غير انه سرعان ما ينتكس بغروره فيسقط الى حضيض الجهل وأوحاله ، ثم اذا به يحاول الارتفاع مرة أخرى ويعاود الانتكاس بعدها ، وهكذا دواليك ٠

واذ كان شقاء سوزيف وعذابه أمرا من آلهــــة الأولمب لا يعرف له سبب ولا تدرك له غاية فان تذبذب الانسان بين قمة الفكر وسفحه أمر يعود الى انتصار الجهل مرة والى انكساره أخرى ، فى معركة تمثل كفاح العقل البشرى للتخلص من أغلاله ثم الانطلاق الى القمة ذات يوم ، بغير قيود تعوقه أو حدود تعرقله ٠

وبينما يعنى ظهور قصــــة سوزيف فى الادب الاغريقى ان الوجود الفردى فى ذلك العهد كان قد انطلق على الانسان تماما ٠ حتى جعله أداة فى يد الآلهة تلعب بشقائه وتلهو بكده ، دون مامبرر لذلك من فعله أو من تقديرهم ، بل ودون ما أمل فى عناية منهم ورعاية أو مثوبة له وسلام ، بينما تعنى تلك القصة ذلك كله ــ يدل مفهوم التأرجح البشرى بين سفح الفكر وقممه والتوثب الذهنى الى شوامخ تلك القمم ، ان الوجود الانسانى

لم يزل حتى الآن حرا طلقا ، وإن أمامه ــ على المدى البعيد ــ أملا ساطعا لم يخفت بعد ورسالة كبيرة سوف يدرك حقيقتها ذات يوم قريب ٠

ومن أجل بلوغ ذلك الأمل وفهم تلك الرسالة ينتفض العقل بين حين وحين لينحى جانبا عنه غروره وكبرياءه ، ثم يحاول ما امكنه احتضان ماضيه وحماية كفاحه ليوالى الضرب فى بيداء الزمن على هدى من تجاربه وخبراته ٠ ولقد بلغ العقل من غايته شأوا حين تغير الوجود فى تقديره بمحاولاته تلك حتى وصل الى انفتاح ليس بعده انغلاق ــ على نحو سلف بيانه يتبلور كله فى قول السيد المسيح أن من يؤمن به يفعل مثلما كان يفعل هو من معجزات بل وأعظم منه ٠ كما تبلور فى تلك النتائج العملية التى وصل اليها الفكر الصوفى فى الاسلام متسلسلا على ابعاد التقدير فكرة فكرة ٠

التجديد والتقليد :

وكان من المقدر ــ فى الظروف الطبيعية لمجرى الامور ــ أن يجرى الفكر بعد ذلك الى أبعد منه ، أو على احتمال آخر ، أن يحافظ على ما كسب من قمم وما أحرز من سموق ٠ غير أن ما وقع فعلا كان على العكس من ذلك تماما ، فقد انحصر الفكر كله فى الشرق العربى ــ اثر نهضته الاسلامية ــ ثم خلف هذا الفكر من بعده خلف اضاعوا التجديد واتبعوا التقليد فعادوا بأنفسهم القهقرى الى النبع ٠ بدلا من أن يسيروا معه قدما الى المصب ٠ وما كان من الممكن لمثل هذه الردة أن تغلق فكرة الوجود بعد انفتاحها الأخير ، لأنها لم تكن شكلا للفكرة بقدر ما كانت تصرفا للافراد ازاءها ٠ فمن لايساير طوفان الفكر الدفوق فى مجراه الساعى الى الحقيقة ــ طواعية منه وقدره ــ انما يفوقع من عقله ثم ينرجس من كيانه دون أن يؤثر على مسير التيار ، الا بقدر مايحاول ذلك التيار الواعى أن يفتح القوقعة أو يحل عقد الكيان ، فان لم يجد قبولا لأغراضه جرف الجمود معه حتى يصفيه ــ أثناء فورانه ــ فى مصفاة تقدير يستفيد بالروائق والشوائق ــ على حد سواء ٠

وقد كان من مقتضى تغير فكرة الوجود الى ما كانت قد انتهت اليه أن تطابق القول فيها مع الفعل ، أو بمعنى آخر ، تلاقى الفكر مع الحياة ، ووصل الى لب الحقيقة العملية بما كان يستحيل معه أن تنتكس الحياة مع الفكر ان انتكس ، أو يتبدد الفعل مع القول ان تلاشى ٠ ثم حدث فى أوج الفكر الصوفى الاسلامى أن تعثر فى سقطة أساءت اليه والى وجود الآخرين ــ بالتالى ــ أبلغ اساءة حين التف هذا الفكر حول نفسه فى اعجاب انتهى به الى أن يقف أمام الفلسفة اليونانية وجها لوجه ، يحاول فى تفاخر أن يبين مواطن العظمة فيه باظهار مواطن الضعف فى هذه الفلسفة ٠ وفات

من بدأ بالمقارنة أنه يسقط من حسابه عنصر الحركة التى انزلق عليها الفكر من أيام الاغريق حتى عصر الرسالة المحمدية ، كما فاته من جانب آخر أنه يقارن ما بين فكر الوجود وفكر الماهية ، وكلاهما من واد يغاير وادى الآخر .

لقاء الوصمات :

فالفلسفة اليونانية — كما بينا من قبل — تحولت بعد سقراط الى فلسفة الماهية ، فقصرت نظرها على أصول الأشياء وأسبابها ، ولم تعد تهتم بالواقع أو تعنى به . وبذا تحولت عن الوجود كلية ، واعرضت عنه فى محاولات مذهبية مجردة . هذا بينما كانت فلسفة الأديان تدور حول الوجود أصلا ، بيانا لحقيقته وعظمته ومسبباته والغاية منه . وقد أدى ذلك ضرورة الى اهتمام الافكار الدينية بالانسان وحده — بحيث اقتصرت هذه الأفكار على الوجود تدرسه من كل جانب — تاركة شتى المسائل الفلسفية الاخرى الى الايمان وحده ، يحلها بالوجدان العميق . وهكذا انفصلت الأفكار الدينية عن الجدل المذهبى ، فلم تبحث — قط — ما تبحثه هذه عادة من مسائل ، ولم تخض أبدا فى موضوعاتها التقليدية ، كخلق العالم وعلته والخالق الأول وقدراته ، وغير ذلك من مسائل مشابهة . بل تركت أمر ذلك كله — على ما نوه عنه — الى الايمان بالدين يذكرها فى نصوص مقررة ، ثم يأتى بعدها على الوجود موضوعه ، فيفيض فى شرحه وتعليله حتى يسقط فى كل نص أو فكرة ، أى شىء قد يكون أو يظن ، أنه حائل بين الوجود والكون .

فكأن انتقال الفكر الاسلامى الى الفكر الاغريقى ، يقيم عناصر المقارنة ، ويبين أوجه المشابهة والاختلاف ، كان بلا شك عملا خاطئا وسقطة لاتغتفر ، لانه سمح بمناقشة أمهات الايمان من أفكار مناقشة قوامها الشك والجدل . وكان من الضرورى — فى مثل هذه المناقشات — أن تضيع الحقائق فى متاهات الألفاظ ، وأن تشوه المثل من حموم اللدود .

وهكذا امتد طوفان الجدل — بما قد ينطوى عليه من ملاحاة وشطط — الى المقدسات العليا فى أعلى برج للايمان الشخصى ، حين هبطت هذه الفلسفة الى مستوى الفرد العادى بمشكلاتها تلك وبجدلها ذاك ، فتبلبلت الأفكار واهتزت المعايير واختلطت القيم .

آثار التقدير العقلى :

وبعد أن قصم المأمون — والمتوكل من بعده — ظهر الحية الرقطاء ، وضربا معاقل الجدل ورواده ، فى تلك الحملة المشهورة على التفلسف الاجوف ،

كان الأمر قد قضى ، فاذا بفلسفة الاغريق ــ تلك التى نشأت فى ربى الالحاد ونمت من وثنيته ــ تصبح أفكارا مبجلة ، لدى الخاصة والعامة ، بحيث صارت أصولا للمسائل فى شتى مباحث الفكر • وما كان من العجب أن يحدث ذلك ، بعد عصر حاول المفكرون فيه أن يقيموا من الفلسفة الاغريقية ، وفلسفة ارسطو بوجه خاص ، هاديا للبشرية كلها ، ورقيبا على حركة الفكر بأجمعه ــ حتى بعد أن سطعت على هذا الفكر شمس الايمان ، وأضاءت الأديان السماوية كل ركن فيه •

وربما كان من أثر ذلك أن ظن البعض بالعقل البشرى قدرة أكثر مما له بالفعل ، طالما اعتقد ــ خطأ ــ أن عقلا كعقل ارسطو استطاع ــ على ظلام عصره ــ أن يكون شعلة ايمان له وللأجيال التالية ، يتناول كل المسائل التى جاء بها الانجيل أو نزل بها القرآن فيوفق فى استلهامها ، ثم يوفق فى تصنيفها •

ونتيجة لذلك فقد أطلق هذا البعض عنان عقله ، بعيدا عن الأصول كلها ، شاردا به فى دنيا الالحاد والوثنية ، قابعا معه على هياكل صماء من فلسفات الصور والماهية ، متنكبا سبيل الوجود وأهدافه السامية •

انتصار الحياة :

على أن بعضا آخر ، أكثر اتزانا وواقعية ، حيى وجوده كاملا ، دون أن يبدده طاقة طاقة بين الكبر والغرور • وهؤلاء اذ كانوا يدركون حدودهم ويعرفون قدر أنفسهم ، دفعوا عجلة الحياة حين ساروا فى تيارها متعاونين مع العناصر كافة ، لا منسحبين ناحية ولا ملتزمين شقا فى الجوانب •

ولما كان التاريخ ــ عموما ــ يؤرخ للأفراد أكثر مما يؤرخ للحياة ، فقد أظهر على صفحاته خصوم الوجود وأعداءه ممن اعتزله ، وعاش بعيدا عن دفء حرارته وفيض حيويته • وبهذا أصبح تاريخ الفكر تاريخا مسقطاته وشطحاته ، يسجل على نصبه أولئك الذين استبدت بهم شهوة الشهرة وأضلتهم فردية التفكير ، فانسحبوا من الوجود بفكرهم ، وعاشوا على الصورة مخدرين ، يخيل اليهم من فرط ما انطووا على الهياكل أن كلا منهم ارسطو زمانه ، أو زمان الغابرين ، وزمان المقبلين •

وبين حين وحين ، كان واحد من أنصار الانسانية يلحظ ما يحدث ويدركه ، فيصرخ من ألم ، صرخة فى واد ، لا تسمع الا قلة ولا تؤثر الا فى أضيق مدى ، لغلبة الفكر المقابل وسيطرته على العقول جميعا • وهكذا ظهر فى العصر الوسيط عبد الرحمن بن خلدون بأفكاره التى حاول أن يدرس بها المجتمعات وتاريخها، فوضع بدراسته تلك أسس علم الاجتماع، وهو العلم الذى يتناول صلة الوجود الفردى بما حوله من عوامل ومؤثرات •

وظهر كذلك ، على نهج مقارب ، مفكرون آخرون ، مثل محى الدين بن عربى والقديس توما الاكويني ، والقديس اوغسطين • وتلاهم فى العصر الحديث بسكال ومين دى بران وشلنج وشوبنهاور وكيركجارد ، محاولين جميعا أن يرفعوا راية الوجود ، فى احتجاج صارخ على التركيبات العقلية المجردة •

واذ كان التاريخ المكتوب ــ كما ذكرنا ــ تعدادا للمعالم وترجمة لها أكثر مما هو بيان للطريق وتصوير له ، فان دراسة الحياة النابضة بالحقيقة، انما تلتمس فى الفنون والآداب والأمثال السائرة ، بوصفها ــ على ماسلف بيانه ــ تعبير الوجود من ناحية، واللسان الفصيح لواقع الشعب الحى ، من ناحية أخرى •

الوجود فى واقع الحياة :

ومن استقراء خلاصات التعبير ووسائله تلك ، فى أى لغة من اللغات وفى أى عصر من العصور ، وعلى الأخص ما كان منها عصرا للحضارة وعهدا للنور ، يتبين انها ــ جميعا ــ تضمنت خطا رئيسيا هاما ــ قوامه التجربة الشخصية ــ على خلاف فى التفصيل بينهما ، تبعا لروح العصر وتقاليد القوم •

وبين عديد من الأمثال الشعبية ، وما جرى من الشعر مجرى الأمثال، نصادف فى الشعر العربى بيتا توارثته الأجيال نقلا ، وتداولته الشعوب قولا ، ذلك قول الشاعر :

لايعرف الوجد الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

فالمكابدة والعناء ــ فى تعبير الشاعر ، وفى كيان الأمة التى نطقت بهذا الشعر ، ثم جرى به لسانها مجرى الأمثال ــ تعد شرطا أساسيا للمعرفة ، تتجرد بدونه من صفتها فتصبح أى شىء ، الا أن تكون كذلك•

وما كان من قصور اللغة أو فضول القول أن يتضمن المثل لفظى العناء والمكابدة ، بل أن ذلك كان ــ بلا أدنى شك ــ تعبيرا صحيحا واضحا عن المعنى المراد والهدف المقصود منه ، بحيث يصور ما قبل المعرفة لظى من وعى أو معبرا من حصر نفسى •

وهكذا انتصرت الحياة للحياة ، فاتجهت الى الوجود بكل طاقة فيها، لاتنى عن أحياء مواته ، ولا تكل من حثه على أن يلقي بذاته الى الغمار حتى يلسعه الواقع بلهب مقدس يقضى ــ فى جوانبه ــ على برودة النظر المجرد من أية خبرة عملية •

الوجود في الفكر الحديث

الوجود في الفكر الحديث

انتهى الأمر ــ بهذا ــ في العصر الوسيط ، وما بعده ، الى فصام كامل بين الفكر والعمل ، أدى بكل منهما الى انتهاج نهج خاص به • وبينما انعكف الفكر على نفسه يبحث فى الفروض الجدلية ، انعطف العمل على الحياة يعانى منها ويكابد ، ثم يجمع الخبرات الى الخبرات ، ويضم التجارب الى التجارب ، فيما يرفع محصل البشرية ويدحو وجودها لينتشر على الوجود كله ، ثم يسربله •

وليس معنى ذلك أن حركة الحياة السارية تجردت من كل اشعاع فكرى ، فجرت على نحو من الآلية صارم ، لايعرف الفهم ولا يستفيد بالادراك ، لكن المعنى بالفصام بين الفكر والعمل ، أن الفكر جرى بمنأى عن التجربة الحسية بينما جرى العمل بمعزل عن نفحات العقل التجريدى• وبهذا افتقد الفكر كل خبرة عملية ، كما افتقد العمل طفرات التقدم والاندفاع ، تلك التى لاتقع عادة الا بعد ما يتشبع الفكر بالتجربة ثم يعمل بنبضه على دفعها الى وضع أرقى وأحسن •

والذى لا شك فيه أن هذا الفصام ، مما عرقل تقدم الحياة وعاق سيرها الطبيعى ، لما أدى اليه من عزلة ، شبه تامة ، بين العامل والمفكر • فبينما جلس هذا فى برجه العاجى ينظر الى السماء ، ويرصد ــ بعينه المجردة ــ نجومها والكواكب ، حتى يستخلص رأيا عنها ، دار الآخر فى مصنعه بين العدسات والأنابيب يرتب بها أمور معيشته ، دون أن ينتهى أى منهما الى أن اتحادهما فى العمل يوفر على البشرية جهدا عظيما كان ينبدد دون أى فائدة • فمن الأنابيب والعدسات صنع المرقب (التليسكوب) ــ فيما بعد ــ فجعل من الرصد عملية سهلة، لها أسس من العلم والواقع• فأصبحت التجربة ــ به ــ تأكيدا للفكر، كما صار الفكر اعلاء لشأن العمل•

فكأنما ظلت البشرية ـ قبل ذلك ـ طوال عهد الفصام ، تكسب بترفع الفكر عن التجربة جهلا فوق جهل ٠ وكان هذا الجهل ـ حقا ـ أعدل قصاص للكبرياء ٠

على أن أحدا ـ فى وقته ـ لم يتنبه لهذه الحقيقة البديهية ، فسار الركب وعلى الأعين عصابات من زيف الحياة ٠ وكانت نهاية المطاف فى هذا الصدد مابدأ يراود الأذهان ـ من جانب ـ على أن العلم كله فى يد العامل ، كما كان ـ من جانب آخر ـ ما انتهت اليه فلسفة هيجل من تقدير مبالغ فيه لكل ما هو عقلى ٠

هيجل : شطحة العقل :

والذى يهم من فلسفة هيجل ـ فى مجال البحث ـ أنها افترضت مطابقة الواقع للفكر ، ثم قطعت بذلك حين قررت أن كل ما هو عقلى هو واقعى ، وكل ما هو واقعى هو عقلى ٠ أى أنها جردت الحياة من طبيعتها الخلاقة ، ثم جعلت منها صورة باهتة لما يمكن أن يدور به أى ذهن مكدود ، فى أمسية من أماسى الصيف ٠

ونتيجة لأخذ الواقع بمعايير العقل ، وفرضها عليه ، انتهى هيجل الى أن الأمور جميعا تسير على قاعدة واحدة ، تبدأ بالفرض ثم ظهور النقيض ثم اندماج الفرض ونقيضه فى فرض أكمل يظهر نقيضه بعد ذلك ، وتدور القاعدة ٠ ومؤدى تلك الفكرة أن الحياة تبدو على شكل معين ، وهذا هو الفرض ، ثم تتكشف معايب ذلك الشكل ، وهذا هو النقيض ، ثم تجرى الحياة على شكل جديد تتلاشى منه المعايب التى اتضحت ، وهذا هو اندماج الفرض ونقيضه ، وهو بذاته فرض آخر ، تجرى عليه ذات السنن ٠

وبقاعدة هيجل هذه ، أصبح من الطبيعى للفكر المجرد أن يخطط مستقبل البشرية كلها ، الى ما يشاء له تصوره ، بالعقل وحده ، ودون ما اعتراك للحياة ، أوحساب لما يمكن أن تظهرعليه من شكل غريب لايذهب اليه التصور أبدا ٠

ولسنا هنا فى مجال تقدير تلك الفكرة واستقصاء نتائجها على الفكر البشرى المعاصر ، والنظم السياسية التى تأثرت بها ، زعما بأن الاشتراكية هى الشكل الأكمل لمجتمع اقطاعى تنقضه الرأسمالية ، وما استتبع ذلك كله من تغيير شامل فى مفاهيم الوجود الانسانى ، انما كل ما يعنينا من الفكرة ضخامة أثرها وانتشاره على قيم البشرية ومثلها ، وهو ما يكشف بدوره عن خطورة ترك الفكر المجرد يستشرى وينطلق ، دون ما ثوابت من الواقع تحده وتهذبه ٠

واذ كانت الحياة قد قومت نفسها بنفسها فأعادت للعلم مكانته فبها

فان الفلسفة ـ بدورها ـ قامت بالحد من المبالغة فى تقديس العقل المجرد، فتولى كانت ، وبرجسون من بعده ، على دراسة من النهج الفلسفى، وضع العقل فى مكانه الطبيعى من الحياة، كما تولى بعض آخر من المفكرين ذلك الأمر فى طلاقة من الفكر ثم يتزموا فيها مناهج البحث المذهبى • وكان أهم هؤلاء جميعا ، المفكر الدانيمركى ، كيركجارد ، وهو الشخص الذى يبدأ به تاريخ الفكر الوجودى الحديث •

كيركجارد : نصرة الانسان :

لم يكن كيركجارد فيلسوفا ، بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وانما كان انسانا ، بكل مفهوم هذا اللفظ من معان ، تعرض فى حياته لأزمات عدة ارهفت من مشاعره وملأت وجدانه بالايمان الدينى الكامل •

وكان ـ فى عصره ـ أول مفكر هاجم الفلسفة الهيجلية فى نقد متوال يهدف الى أن يستبدل بالفكر الموضوعى فكرا خاصا تنبع فيه الحقيقة من صميم الذات • وهو ـ من ثم ـ أول من جعل من الأزمات النفسية والتجارب الشخصية نقطة البداية فى الفلسفة الحديثة • واذ كانت حياته مليئة بمثل هذه الأزمات ، غنية بالتجارب ، فقد انتهت به أفكاره تلك الى تعمق الوجود وتفهم معناه ، فى جهد مستمر ليفلسف حياته ، ثم يحيا هذه الفلسفة من بعد •

وهكذا كانت الذاتية أساس فلسفة كيركجارد ، بحيث كان يرى أن انعدام الذاتية فى علاقات موضوعية ، أو تلاشيها فى ذوات أخرى ، يفيد معنى الانسحاب من الوجود ، وبالتالى ينهض دليلا على العدم • ومن هنا ظل كيركجارد حياته يجد العزلة والصمت باعتبارهما بكارة الحياة ، وكل النبل والطهارة ، ولما تؤديان اليه ـ حتما ـ من اتصال دائم بالذات الالهية وشحن مستمر لطاقة الايمان •

واذا أردنا أن نوجز فلسفة كيركجارد ، تبينا أنها تقرير لما فى الحياة من تناقض ، وتأكيد لقيمة الذاتية فى السبيل المؤدى الى الحق ، وايمان كامل بأن الذات المطلقة يمكن أن تتكشف للذات الفردية من خلال الالم والقلق والندم والحصر النفسى ، فالحياة ـ فى هذه الفلسفة ـ معاناة الذات للوجود فى محاولة لتقرير مصيرها ، والوجود ـ على هذا المعنى ـ هو الاختيار ، وهو الصيرورة ، وهو حياة الوحدة والتفرد ، وهو الانشغال اللامتناهى بالذات ، وهو الشعور بالخطيئة ، ثم هو ـ أخيرا ـ الوجود أمام الله •

والذى يلاحظ على هذه الفلسفة ـ أو هذا الفكر بمعنى أصح ـ أنه لم يأت بجديد ، فكل ما فيه سبق به القول ، أو سبق الاحساس بمعناه •

وقد بينا من قبل كيف أن بيتا من الشعر العربى تضمن – بايجاز – جل فلسفة كيركجارد ، وأساس استلهامها معنى الحياة ، عن طريق المكابدة والمعاناة ٠

لكن انسياب أفكار كيركجارد خلال تعبيرات الفلسفة، وعلى ألفاظها، نقلها من محيط الحياة الكاملة والفكر الحر ، الى مجال النظر الفلسفى ؛ خاصة وقد كانت ردا على فلسفة هيجل ، وثورة على الفكر الموضوعى والمناهج المذهبية السائدة ٠

هوسرل : الوجودية تتصيد منهجا :

ولقد كادت الفلسفة الوجودية أن تسير على الدرب ، فتتابع خطة كيركجارد فى حديث الفكر وأسلوب الحياة ، دون أن تلتزم منهاجا معينا فى البحث ، يحتجز لها مكانا فى الدراسات الفلسفية عامة ، غير ان الفيلسوف الألمانى ادموند هوسرل وضع منهاجا خاصا عن فلسفة الظواهر التقى مع الفكر الوجودى فى الطريق ، فصار منهاج هذا الفكر ، ثم فرضه – بالتالى – على التاريخ الفلسفى ٠

وتتعرض فلسفة هوسرل لدراسة وقائع الفكر والمعرفة ، دراسة وصفية محضة ، على نحو ما نحياه فى صميم شعورنا ٠ فالشعور – فى هذه الفلسفة – ينعطف نحو الاشياء لمعرفتها ، لانه بطبيعته متجه اليها بقصد فهمها ٠ والذات الفردية – من ثم – لا بد أن تتجه نحو موضوع ما لهذا الغرض ٠ وبذلك يقوم نوع من الاحالة بين الذات والموضوع ٠ فكأن كل شعور انما هو فى حقيقته شعور بشيء، أما الشعور المجرد من أى موضوع، فهو ضرب من الظواهر العقلية – ليس الا ٠

فهوسرل اذن دعا الى عدم الحكم على الأشياء الا من خلال الشعور ، ومفاد ذلك أن وضع الوجود – بما يحتويه من أشياء – بين قوسين ، يقفنا وجها لوجه أمام الشعور ، بوصفه واهب كل معنى ٠

وعلى هذا وضع هوسرل منهاجا، ليس فى حقيقته غير وصف لمعطيات الشعور المباشرة ، وهو المنهج الذى طور الفلسفة فجعل منها مجرد علم وصفى محكم ، لا أثر فيه للاستدلالات العقلية المحضة ، طالما كان الشعور فارغا من أى مضمون اذا لم يتصل فى الواقع بموضوع ٠

تقدير المنهاج :

ومن الواضح أن نقطة التقاء فلسفة الظواهر هذه بالفلسفة الوجودية ، انما كان فى اهتمام كل منهما بالذات الفردية والشعور الخاص، باعتبارهما مبدأ كل ادراك ومعنى ، أو بتعبير آخر ، باعتبارهما الأصل فى أى منهما،

أما مفرق اختلاف الفلسفتين ، فهو أن هوسرل افترض وضع الوجود بما يحتويه من موضوعات ـ بين قوسين ، لينتهى الى أن الشعور وحده هو الذى يهب الوجود معناه ، أما الفلسفة الوجودية فقد ذهبت ـ فى بعض تصوراتها ـ الى ضرورة حذف هذين القوسين ، وهو ما انتهى بها الى الحكم على الشعور بأنه مجرد عدم ، يفرض أن الاشياء ، بغير الشعور عدم ، وأن الشعور بدون الاشياء ـ بالتالى ـ عدم كذلك •

على أن سلب الحياة من الشعور ، وافراغه من أى حساسية ذاتية ، انما جاء فى مرحلة خاصة من تطور الفكر الوجودى ، نزع به مرة أخرى منازع الالحاد الكامل ، فسد عليه منافذ الانتشار ، وأغلق دونه كل آمال السموق ، ثم تركه ـ وحده ـ يعيش على العزلة ويدور حول الوهم ، وبذا ملأ كيانه بالعدم ، وشتت قواه فى الضياع •

لقد بدأ الفكر الوجودى ـ منذ بدأ الانسان ـ بوصفه نتاج الواقع وخلاصة التجربة الشخصية ، وبهذا كان ـ فى فجره ـ ايمانا بالانسان وقدراته ، ثم صار ـ على المدى ـ ايمانا بالانسانية كلها ، ثم ايمانا بالله وقدرته • ولم يكن تدرج الايمان هذا الا نتيجة طبيعية لمجرى الأمور ، فان حبة الايمان ـ لا شك ـ تعلو شجرة ثم تطرح ثمرا • والايمان بالانسان الفرد لابد أن يصبح ايمانا بالانسان الجنس ، ثم انه ـ لابد كذلك ـ ان يصبح ايمانا بما فوق الفرد والجنس ، وما يعلو عليهما معا ، وهو « الله » سبحانه • أما الكفر بأى من هؤلاء فانه مؤد ـ لا مشاحة ـ الى انتشار الكفر على الطريق كله ، بحيث يغرق ـ فى طوفانه ـ كل القيم والمثل ، ومن ثم يغرق الانسان نفسه بعد ذلك ، ويعزله عن كل ايمان حتى ايمانه بذاته •

وكان تسرب العدمية الى الفكر الوجودى ـ فى العصر الحديث ـ هو ما قوض ذلك الفكر ، اذ جعله مجرد تقرير لعزلة الانسان عن كل شىء ، فانتهى به ذلك الى انكار شامل لما حوله ، ثم انكار للايمان بأى قيمة أو مثل ، أو الايمان بالانسانية ، أو الايمان بالله تعالى •

والعدمية ـ كما بينا من قبل ـ تسربت الى الفكر الوجودى الحديث عندما عرف منهاج هوسرل ، فصار هذا المنهاج بمثابة الهيكل العظمى منه ، يكسوه كل مفكر ـ حينا ـ بآرائه ، وبذا انطبع بصورته وتشكل بهيئته ، فاذا به يستعمل فكرته فى حذف الوجود العام ، ثم اذا به ـ بعد ذلك ـ ونتيجة للتقابل الفكرى والتضاد اللفظى ـ يصل من حذف الوجود العام الى حذف الوجود الفردى ، واسقاط العدم بظلاله القاتمة ـ هنا وهناك ••

جبريل مارسل : تطبيق المنهاج :

وأول من استعمل منهاج هوسرل في فكره ، كان الفيلسوف الفرنسي جبريل مارسل ، غير أن مارسل هذا كان مؤمنا ـ شأن كيركجارد ـ فلم ينحرف به المنهاج الى ماانحرف اليه بعد ذلك •

ويكاد هذا الفيلسوف أن ينتمي ـ هو الآخر ـ الى طائفة المفكرين والمتأملين أكثر من انتمائه الى صفوف الفلاسفة • فهو لم يصدر في تفكيره الا عن تجربة خاصة ، ولم يهتم الا بما اتصل بطبيعة عمله ووافق نفسه، وبذلك جعل تأملاته الفلسفية وليدة تجارب ذاتية معينة وخلاصة مواقف نفسية صافية •

ونقطة البداية في فكر جبريل مارسل هو الجسد البشرى ، فهو يرى أن ثمة علاقة غامضة تربط الذات بالجسد فتجعل منه وسيطا ضروريا للشعور بأى شيء ، لكن ـ هذا الجسد ـ لايعبر عن كل الوجود ولايستوعب صميم الذات، وانما يسمح بايجاد مسار خاص تختلط فيه اشعاعات الذات باصداء العالم الخارجي •

فكان الوجود ـ في نظره ـ ليس حقيقة أو واقعة ، بقدر ما هو عمل واكتساب • والوجود الكامل ـ في هذا التقدير ـ هو تلك الدرجة السامية من الذاتية، حين يكون بوسع الانسان أن يخلق نفسه بنفسه • وأن يتقبل المسئولية المترتبة على كل أعماله ، بحيث يظل ـ دائما ـ في محاولة للعلو على نفسه •

كارل يسبرز : نهاية التعبير الشخصي :

واذا كان جبريل مارسل ، وكيركجارد من قبله ، قد آثرا التعبير عن وجودهما الذاتي وتجاربهما الشخصية ، فان فيلسوفا آخر ـ هو كارل يسبرز تحول بالفكر الوجودي الى تفكير عقلي منظم ، يتعمق في فهم هذا الفكر ، ويتميز بطابع خاص يحصر الوجود الانساني في ذلك الفعل الارادي الذي تأخذ به الذات على عاتقها مسئولية وجودها .

وهو ـ في ذلك ـ يفرق ما بين الوجود الطبيعي الذي أعطي للانسان قبل كل جهد ـ والذي رأينا من قبل أنه محض الكينونة ـ وبين الوجود الحقيقي ، الذي ينشأ عند انبثاق الممكنات الخاصة من المعطيات الطبيعية، أي عندما تظهر الصفات الشخصية من خلال تفاعل العوامل الموروثة بالظروف المحيطة والمواقف المتجددة •

فكأنما الوجود ـ على ذلك ـ ليس غير عملية اختيار مستمرة ، تعتبر الحرية فيه حقيقة وجودية لاتكاد تنفصل عن الوجود الشخصي • والحرية

فى نطاق هذا الوجود – هى تقبل الذات والاخلاص لها بما يحافظ على شرعية الوجود • أى ان الحرية – عند كارل يسبرز – منهج متنـــاقض من الضرورة والاختيار ، يتقبل فيها الانسان قدره، ثم يسعى به الى المبدأ الأعلى « أو المتعالى » •

وعلى هذا الفـكر – فان الانســان الذى يحيا وجوده حقا ، هو ذلك الذى تتحد ارادته بقدره ، بحيث يرتضى مصيره فينبع الاختيار –تلقائيا– من قرارة وجوده ، خلال عمليات متوالية من الاتصال والترابط ، تسفر عن طابع شخص فريد من نوعه •

ومن هذا الفكر ، وبعد كارل يسبرز ، بدأ الوجود فى الفكر المعاصر يتخذ شكل الفلسفة وطابعها الـكامل ، وبعد أن كان – قبل ذلك – مجرد التعبير عن الذات وتركيز خلاصات الخبرة والتجربة •

هيدجر : فلسفة الوجود :

ولقد ظهرت الفلسفة الوجودية ، بمعنى الفلسفة المنهاجى ، بظهور الفيلسوف الالمانى مارتن هيـــدجر ، الذى كان يعلن فى كل منـاسبة أنه يبحث فلسفة الوجود العام دون فلسفة الوجود الانسانى •

ويرى مارتن هيدجر أن الوجود يقتصر على الانسان وحده ، أما باقى الموضوعات فتتخذ حالات أخرى غير الوجود ، مثـال ذلك أن الحيوانات تحيا والموضوعات الرياضية والأدوات المادية تظل ومظاهر الطبيعة تتجلى •

وهو يؤسس تلك التفرقة بين الانسان وغيره من العناصر على الانسان وجود منفتح من كل جانب ، يتصل بكل مافى الحياة ، سواء شاء ذلك أم لم يشأ• وهذا الاتصال يجرى على نحو حركة مستمرة من الأخذ والعطاء تستجمع فى حاضرها آمال المستقبل وخبرات الماضى ، ثم تنطلق بها لتحقق ذاتها •

فالانسان – على هذا التقدير – مشروع وجود يحده من الماضى امكانيات لم يتخيرها ، ويحده من المستقبل مصير لا بد له أن يتقبله ، وهو الموت •

فالوجود – بذلك – واقعة زمانية يجـد فيها الانسان أن بينه وبين نفسه مسافة عليه أن يجتازها ، لكنه – مع ذلك – يوقن أن امام محاولته تلك فكرة الموت تتهدده بالفناء والعدم، لأن الموت ليس واقعة تأتى فى نهاية الحياة وبعدما يحقق الانسان ذاته ، انما هو واقعة لا تكاد تنفصل عن فعل الوجود ، وهو بذلك ينهى الحياة فى أى وقت ، بغير حسبان لما اذا كان الانسان قد حقق رسالته أو أنه لم يزل بعد فى دور هذا التحقيق • لكن هيدجر ، مع وضعه العـــدم فى صميم الوجود ، وتفريعه الهم والقلق عن

ذلك العدم ــ وهو ما يصبغ الوجود بالخصر ويلونه بالجزع ــ يرى أن ذلك كله يكون لدى الانسان شعورا حيا وعاطفة وجودية يجابه بهـا حقيقته ، من أنه وجود متناه قابل للموت ومنته الى الفناء ، ثم يرى أن هذا الشعور ــ وحده ــ هو الذى يسمو بالفرد الى مسـتوى الوجود الصحيح الحقيقى بعد أن ينتزعه من دائرة الوجود الزائف ٠

والوجود الزائف ــ عند هيدجر ــ هو ذلك الوجود الذى تميل فيه الذات الى الاندماج مع الناس والانغماس فى المجموع والارتماء فى أحضان الآخرين ، مؤملة أن تتهرب من حريتها وتتنصل من مسئوليتها وتتخلص من شـعورها بالقلق ٠ أما الوجود الصحيح ــ فهو على العكس من ذلك ــ وجود تشعر فيه الذات أنها قائمة بنفسها ، مسئولة عن ذاتها ، وأنه قد خلى بينها وبين حريتها ، فتأخذ على عاتقها ــ وحدها ــ تبعة وجودها ٠

وهكذا توجز فلسفة هيدجر فى أن الانسان موجود غير كامل يسعى مع الزمن لتحقيق ذاته عن طـريق وجود صحيح يصـل اليه عبر القلق ٠ وهذا القلق يتـكون من احساسه بالعدم يمثل أمامه ويهدده على الدوام ، وفى أى لحظة ، بافناء وجوده ، مما يملأ كيانه ــ خلال كفاح الحياة ــ بأنه ــ أبدا ــ لن يستطيع أن يحيا الى وقت يحقق فيه وجوده كاملا ، ويصل به الى مستوى الكمال ٠

واذ كان وجود الانسان فى حقيقته وجودا مشتركا ، طالما أنه لم يستغن به عن الآخرين ، فان شعوره ــ وهو قوام هذا الوجود ــ لا يمكن أن يكون الا متصلا بموضوع ، موجها نحو شىء ، بما يفيد أن أفراغ هذا الشعور من موضوع يتصل به أو شىء يتجه اليه ــ يسلب الشعور معناه فيصبح والعدم سواء ٠

العدم يتغلب :

وهكذا التقى الفكر الوجودى ــ نهائيا ــ بفكرة العدم ، وبدأت هذه الفـكرة تغـالبه شيئا فشيئا حتى غلبته ، فاذا بالوجودية تصـبح ــ فى مضمونها الأخير ــ فلسفة العدم ٠ وقد حدث هذا ــ على ما نوهنا ــ بعيدا عن الطفرة التى تنبه الى خطورة المنحدر ، اذ كان تغير الفكر الوجودى فى العصر الحديث ــ وبما انتهى اليه ــ خلال عمليات عقلية متتالية حاولت أن تصبه فى قوالب شكلية ، وهو الفكر الفياض الذى يأبى القالب وينأى عن الشكل ، فاذا به يفر من الدعاة الى الحياة ، ثم يتركهم ــ ومن يلوذ بهم ــ اسرى فراغ القالب وجمود الشكل ٠

ولقد بينا من قبل كيف أن الفكر الوجودى هو فكر الحياة الطلقة ، هكذا كان ، وظل ، وسوف يظل ٠ بدأ عنـدما اكتشف الانسان نفسـه

ـ رويدا رويدا ـ بالخبرة والتجربة • ثم سار مع هذا الاكتشـاف خطوة خطوة حتى وصل الى الذروة بتعاليم السيد المسيح وأفكار الدين الاسلامي، حين انفتح الوجود طوال الحياة ، وما بعد الحياة ، في صورة أصبح الانسان بهـا سـيد وجوده وحر فعله ، طالما وقر في ذهنه أن الحيـاة الدنيا تجربة يخوضها ليزكى بها نفسه الى حياة أرقى ، وأن سبيله الى هـذه التزكية خلق فاضل ، وايمان بكل القيم ، ووسيلته اليها مغالبة الأحداث ومصارعة الظروف ، بكل ما لديه من امكانيات ، في محاولات باسلة للتفوق عليهـا والترفع فوقها •

***

ولقد كانت آفة الفكر الوجودى ـ دائما ـ تنحصر في دواعى المقارنة • ففي العصر الوسيط ، وبعد النهضة الفكرية الاسلامية ، بدأت هذه المقارنة فيما بين الأفكار التى فاضت عنها ، وبين أفكار الفلسفة الاغريقية ، وكانت نتيجة ذلك ـ بالطبع ـ انطفاء فورة النهضة وانسحاق نتاجها الزاهى تحت ضربات الرتابة الذهنية •

ثم تكرر الأمر ـ مرة ثانية ـ في العصر الحديث • فما كاد الفكر الوجودى يرتفع على شراع جديد حتى عاود المقارنة ، فاذا هو يفاضل فيما بينه وبين فلسفة هيجل ، مفاضلة خسر فيها كل مكاسبه حين حمى به وطيس الصراع فتحالف مع الشيطان لينتصر ، وبهذا ضيع نفسه ولم يكسب شيئا •

بدأت مقارنة الفكر الوجودى بفكر هيجل منذ الوهلة الأولى ، حين ثار كيركجارد على التجريد العقلى الذى دعا اليه هيجل ، فكان اتجاهه الفكرى ـ من ثم ـ وليد الأثر المنعكس لهذا التجريد ، تمثل في انكاره أى تركيب عقلى ينافى الواقع ولا ينبثق منه • وكانت تلك الثورة ، بكل نتائجها ، هى السبب في ظهور الفكر الوجودى المعاصر في ثوب من الفلسفة ، لأنها أدت ـ على التوالى ـ الى وضع أفكار الحياة العملية جنبا الى جنب مع انطلاقات الذهن المجردة ، كأسباب للنقد ـ أولا ـ ثم كآراء مقابلة ـ بعد ذلك ـ ثم آخر الأمر كمنهاج ثان يستقل عن المنهاج الأول تماما •

وكلما كانت ضراوة الصراع بين هذين المنهاجين تشتد وتحمى ، كان الفكر المجرد يمعن في تطرفه وكان الفكر الوجودى يغرق في تصرفه ، حتى انتهى الامر الى أن صارا ـ بتلك الحدة ـ قسيمين يتقاسمان حاضر البشرية ويهيمنان ـ من بعد ـ على كل الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية فصبغاها جميعا بالتطرف ، وبذرا فيما بينها العداوة والبغضاء •

فالاتجاه التجريدى ـ كما ذكرنا من قبل ـ انتهى في التخطيط

الاجتماعى ، الى أن النظام الاشتراكى هو النظام الأكمل اقتصاديا وسياسيا، باعتباره الشكل الأرقى لمجتمع اقطاعى تنقضه الرأسمالية وتقوض أركانه. فالنظام السياسى ــ فى تقدير هذا الفكر ــ يبدأ بالاقطاع ، وهو سيطرة فئة قليلة على أهم عامل للانتاج ، هى الأرض ، فرضا ، ثم يتخلخل هذا النظام شيئا فشيئا عندما تثرى فئة من أبناء الطبقة المتوسطة عن طريق التجارة والصناعة فتكون طبقة جديدة تسيطر بدورها على وسائل الانتاج والتسويق ، فيتحول المجتمع بذلك الى الرأسمالية بدلا من الاقطاع . ثم يجىء التطور الأخير والأكمل عندما يسيطر الشعب على عوامل الانتاج ووسائله فى نظام يستهدف اشراك الجميع فى ادارته والانتفاع منه ، وهو النظام الاشتراكى .

ورغم ان كارل ماركس واجد هذه الفكرة يعد ــ عند تبيان الدعاة من أنصار الانسانية الذين عادوا التجريد العقلى وانتقصوا منه ، الا أنه ــ مع ذلك ــ اقام استقراءه السياسى على منهاج هيجل ، بشأن تآلف الفكرة ونقيضها ، فيما أصبح يعرف ــ فى الفكر السياسى ــ بالمذهب المادى للتـــاريخ .

وكان طبيعيا ــ من باب المقابلة العادية ــ أن يعارض الفكر الوجودى هذا الاتجاه ، زعما بأن تحقيقه يعنى ــ فى بعض الصور ــ تجاوز الفرد الى الدولة ، وافناء الذات فى المجموع . ومن أجل ذلك ركن الفكر الوجودى من جانبه ــ وفيما عدا النقد المتوالى ــ الى تأكيد الخصائص الفردية فى الانسان ، تأكيدا رفعها الى مرتبة القداسة حين فصلها عن أى قانون سابق أو نظام محدد ، وعزلها عن روح الجماعة وسنة الخلق .

وبهذا ترتب على كلا الاتجاهين : التجريدى والوجودى ، أن تلاشى الايمان فى مجتلد المادة ثم ذاب من ضمير البشرية .

***

فالمذهب المادى للتاريخ ــ وهو آخر صور التجريد العقلى وأهم نتاجه ــ يجعل عمليات الطبيعة محكومة بالجدلية ، ويرى أن المثل الأعلى ليس غير العالم المادى الذى يعكسه العقل البشرى وتترجمه عبارات التفكير، وهو من ثم أخضع الانسان الى نظام يشبه الساعة التى تعمل الى مالا نهاية وفقا لقوانين ثابتة تقع دائما ، مع وجود الاله أو عدم وجوده ، وبتدخله أو بغير ما تدخل منه .

أما الفكر الوجودى المعاصر فقد وقع فى شراك الالحاد عندما أسرف فى تأكيد الخصائص الذاتية للفرد ، لدى معارضة المذهب المادى ، اسرافا أغرق الفكرة فى الغرض ، فاذا بها تتحول الى فردية كاملة ترى فى الانسان

واقعة منفصلة عن الماضى أو المستقبل ، وربما عن الحاضر كذلك • وقدكان من مؤدى هذا النظر حصر الذات الانسانية فى الجسم المادى ، وحد الحياه فيما بين الميلاد والوفاة ، وهو الأمر الذى جعل من الموت ــفى ذلك التقديرــ أمرا مخيفا وواقعة تهدد الوجود الفردى ــ فى كل حين ــ بالعدم • كما انه ــ من جانب آخر ــ ونتيجة للموقف الانعزالى الذى فرضه على الانسان، أفرغ الشعور من كل ادراك وحيوية ، ووسمه بالعدم ، اذا لم يتصل بأمر أو موضوع يملأه ، فيهبه معانى الفهم والحياة •

***

واذ لم يكن الفكر التجريدى ــ وما تفرع عنه من تفسـير مادى للتاريخ ــ موضوع البحث ، فانه من الطبيعى الا نتعرض لآثاره أو نقد نتائجه ، اكتفاء ببيان انطباعات الفكر الوجودى باتجاهه ، وتنكبه سواء السبيل عندما تشبث بالمعارضة •

أما تقدير الفكر الوجودى ، بصدد العدمية فى شقيها ، فانه أمر ينظر اليه على ضوء الطلاقة الذهنية التى وصلت اليها فكرة الوجود فى تعاليم السيد المسيح واحكام الديانة الاسلامية ، حين صار الوجود الفردى ــ بهما ــ نسمة فى شهيق الوجود العام ، ونفحة من قواته وقدراته بدأت فيما قبل الميلاد ، وجرت عليها سنة الحيـــاة لتنفى ، ثم ترقى ــ بعد هذا ــ الى بقاء فى خلود • ومفاد ذلك الفهم أن الوجود البشرى ينطوى فى ذاته على المعرفة والاحساس ، وان هذا الاحساس وتلك المعرفة يظهران على مدار الحياة البشرية ، بين الفيض والغيض ، نتيجة لعثور الانسان على نفسه أو فقده ذاته • فكلما ارتفع الوجود الفردى على الماديات وخف عنها ، وصل الىالعلم اللدنى والمعرفة الحقة ، وصار الى ذات حيةمن خالص الشعور ومحض الاحساس ، وكلما سقط هذا الوجود على الماديات والتزج بها ، بعد عن المطلق وفقد الانتشار ، فأصبح أسير نسبية الفهم محصور الشعور فى دنياه •

فكأن الفكر الوجودى السديد لا يخاف الموت ولا يرى فيـه بترا لجهده ، بل انه ــ على العكس من ذلك ــ ينظر اليه كأمر طبيعى ينتقل به الى امتداد الحياة وانتشار الوجود ، حيث يوالى جهوده ــ فى خفة وطلاقة ــ الى القصد والغاية • كما أن هذا الفكر ــ من ناحية ثانيـة ــ لا يفصل بين الشعور والأشياء ثم يصم كلا منهما بالعدم ، بل انه ــ على العكس من ذلك أيضا ــ يجعل من الاثنين نسيجا واحدا نثرت المادة خيوطه، وتحديد عناصر الاحساس فى كل منهما يقتضى ــ بلا شك أو جدل ــ عودة الخيط الى الخيط ، وربط هذا بذاك •

***

وربما كان أحسن تقريب لهذا الفكر ، فى التقاط الانسان علمه من صفاء نفسه ، ما ذكره افلاطون من أن « العلم ذكر والجهل نسيان » • وهو قول يعبر عن افتقاد الانسان علمه لدى مفارقته عالم المثل واتصاله بالواقع ، ثم اكتساب هذا العلم شيئا فشيئا ، عن طريق تذكره فحسب ، وليس بتحصيل ما هو غريب عنه •

***

على أنه بالرغم من وضوح هذا الفكر ، وانطلاقه فى محيط الفهم البشرى شهبا تتوهج على آفاقه من حين الى حين ، فقد أنكره الفكرالوجودى الحديث وأعرض عنه ، فكان فى تصرفه هذا ، كالأعشى الذى يجحد ضوء الشمس من رمد ، والعليل الذى ينكر طعم الماء من مرض •

مثل هذه الكلالة فى الفهم رانت على الحياة فى أحوال كثيرة ، كانت تنتكس فيها برجع الشعور وصدع الانفس • وليس أدل على ذلك من قول الشاعر العربى : الموت غاية زائل ••• فان ، وانتم زائلون •

وقول الآخر : « سبيل الموت غاية كل حى » •

وهو قول يبين أن الحياة — فى بعض دوراتها — رأت — هى الأخرى ، ان الموت غاية الحياة وقصد الوجود ، فوضعت العدم منالا وجعلت منه سيفا مسلطا ، بينما الأحرى أن يعد الموت — على ما نوهنا — نقلة طبيعية يستمر بها الجهد وينتشر الكيان ، وبذا ينفتح الوجود الفردى — على المدى — الى ما بعد الموت ، فلا يعتد به ولا يخشى له بأسا •

***

ولعل أهم ما يلاحظ ، من استقراء الفكر البشرى ، ان خوف الموت وتسلط العدم أمر يرتفع على هام الانسان كلما سقط فى هاوية الالحاد وتردى فى بئره • فكأنما الانسان والالحاد اناءان على جب ، يتداولان الامتلاء منه ، ما أن يرتفع أحدهما عليه حتى يسقط فيه الآخر •

ويعود ذلك — كما يظهر مما سلف بيانه — الى انفتاح الوجود أو انغلاقه • فالايمان بالله يفتح الوجود الفردى من كل جانب ، افقيا الى الحياة ورأسيا الى القدسية والجلالة • أما الالحاد فانه يغلق الوجود الفردى تماما ، بما يؤدى الى التهوين من قدره ، فاذا هو — فى نظر نفسه — فقاعة حياة ندت عن حركة المادة ، وسرعان ما تتبدد بلا أثر ، بعد أن تظل ما تظل ، مهددة بالفناء والعدم • ويترتب على هذه الفكرة بالتالى — ان الحياة باطلة ، وان كل جهد فيها باطل — ما لم يوجه الى اقتناص الفرصة وانتهاب اللذة • وهذا بالفعل ما انتهت اليه الوجودية الحديثة ، سواء

شاءت هذه النتائج أم أنها ـ حقيقة ـ لم تكن فى حسبانها ولم تقدر يوما احتمال وقوعها ٠

***

وحتى تكتمل المقارنة ، بالنسبة الى شخص واحد ، فى حالى ايمانه والحادة ، نتابع شعر أبى العلاء المعرى ؛ فنجد فيه خير مثل ٠

فأبو العلاء المعرى ، هو الذى قال ـ عندما تأثر بالفكر الاسلامى فى تقييم الوجود وتقديره :

وانى وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الاوائل

ثم هو ـ بذاته ـ الذى قال ـ عندما ملأت رأسه أوهام الالحاد ، واشتهر عنه :

غير مجد فى ملتى واعتقادى   نوح باك ولا ترنم شـــاد

وهو قول يفيد معنى بطلان الحياة ، وبطلان كل انفعال فيها على المعنى المشار اليه ٠

وما حدث مع أبى العلاء المعرى مثل يحدث مع غيره ، تبعا لتذبذب الفهم ، بين الايمان والالحاد ، حتى وان لم يظهر ذلك على صورة سافرة محددة ، لأن وضوح التغير فى فكر أبى العلاء كان ـ فى الواقع ـ نتيجة سفور وجدانه فى أحسن وسائل التعبير ، وهو الشعر ٠

واذ كانت وسائل التعبير ، وعلى الأخص ما أفرغ منها فى قوالب الألفاظ ، خير مايسقط من القائل لباب نفسه وجوهر اعتقاده ، فان تقدير نتائج الفكر الوجودى الحديث انما يجىء بعد دراسة التعبير الذى التزمه هذا الفكر ليسفر عن مفهومه ٠ وقد كانت هذه الوسيله ـ كما ارتأى هذا الفكر ـ هى التعبير الأدبى بكل وسائله من شعر ومسرحيات وقصص ، على اعتبار أنه بهذه السبل وحدها ، يمكن تبسيط الفكر بحيث يفهمه الجميع ويصل الى كل المستويات ٠

جان بول سارتر ـ الوجودية الحاد :

وقد تزعم هذا الاتجاه الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر ، وهو الشخص الذى تنسب اليه الوجودية الحديثة ، وربما الفلسفة الوجودية كلها ، لأنه الوحيد من كل الفلاسفة الذى قبل منهم أن يصف اتجاهه الفكرى بالفلسفة ، كما أنه ـ من ناحية ثانية ـ آخر مفكر فى سلسلة المفكرين الوجوديين ، مما يفترض أنه لابد قد استفاد بكل ثمراتهم الفكرية،

ولأنه ــ فضلا عن ذلك كله ــ صادف بفلسفته جيلا من الحائرين ، فقدوا اتزانهم الفكرى من سكرة التكالب المادى وسرعة الدفع التقدمى فجعلوا منه نبى دينهم الجديد ٠

وفى أعمال جان بول سارتر الادبية تظهر أفكار العدمية وبطلان الحياة وجهالة المصير على ألفاظ صارخة من التعبير الحاد ، تهدف الى تصوير الوجود فى صورة من الألم والغنيان ، فتجرده بذلك من كل معنى وتسلبه أى قصد أو غاية ٠

وليس هنا مجال تحديد هذه الأعمال الأدبية وتحليل ما تضمنته من ألفاظ ، ومن ثم فاننا نجتزىء ببيان الخط التفكيرى الذى سيطر عليها وهيمن على قلم الكاتب ، حتى نتابع تاريخ الوجودية فى الفكر الحديث ــ من جانب ، وأثر الالحاد وانغلاق الوجود على هذا الفكر ــ من جانب آخر ، خاصة وان الأمر ليس قاصرا على جان بول سارتر ، بل ان كثيرين غيره انتهجوا نهجه وساروا على مساره ، مثال ذلك أن رواية الغريب للكاتب الفرنسى البير كامى ــ وهو معبر عن روح الوجودية المعاصرة ــ ركزت فى البطل كل المعانى المنوه عنها ، فاذا هو انسان فاقد القيم ، فارغ المثل ، لايعبأ بغير اللذة ولا يحفل بأحد سواه ٠

وحتى تكتمل حلقات التقدير ، نترك الظل الى الأصل فننتقل من التعبير الأدبى الى أصل الفهم ذاته ممثلا فى فلسفة جان بول سارتر ، وهى كما ذكرنا تكاد تكون ختام الفكر الوجودى الحديث ، بحيث تستغرق ــ بهذا المعنى ــ فلسفة ميرلوبونتى وسيمون دى بوفوار ، وغيرهما ٠

***

وتبدأ فلسفة سارتر من جملة ديكارت « أنا أفكر ، اذن أنا موجود » ، فترى أن هذه الجملة تفيد معنى وجود الشخص ووجود الآخرين ووجود الأشياء الأخرى التى يتكون منها الوجود ٠

ثم يفرق سارتر ــ بعد ذلك ــ بين الموجودات ، فيقرر أن ثمة موجودا فى ذاته وموجودا لذاته ٠ أما الموجود فى ذاته فهو ذلك الموجود الكامل الذى يكاد يشبه وجوده الشىء الصلب المتماسك ، ليس فيه من ثغرة ينفذ منها وجود الآخرين ٠ ذلك أن هذا الموجود كامن فى ذاته كامل بها ٠ أما الموجود لذاته ، فهو موجود متغير متحرك على مسار الزمان ، قوامه الشعور ٠ وهو بذلك أقرب مايكون الى اعتباره مشروع وجود ينزع باستمرار الى التنصل من ماضيه لتحقيق ذاته ٠

ويضيف سارتر أن نزوع الانسان الى تحقيق ذاته يجعله ــ دائما ــ يعدو خلفها دون أن يملك اللحاق بها ، ومفاد ذلك أن تكون الزمنية خاصية

أساسية فى وجود الانسان ، طالما كانت محاولاته تفيد معنى الجهد المستمر • ومن هنا يصادف العدم الذى يكمن فى صميم تكوينه فيجعل منه فاعلية هدامة ، اذ يحول بينه وبين التطابق التام مع وجوده •

فالانسان ــ فى هذا التقدير ــ عدم يفرز اللا وجود ، وهو أشبه مايكون بفجوة فى الوجود العام أو بمثابة تصدع فيه • لكنه ــ مع ذلك ــ وعى كامن فى صمت الأشياء ، لا يكف عن خلق نفسه بنفسه ، خلقا يفيد أنه حر ، ويرادف معنى غياب الله •

فليس ثمة ماهية للانسان خلقها اله من قبل ، وفرض على الانسان أن يسير بجهده اليها ، انما الأمر كله رهن بمشيئة الفرد وارادته يبتدع ما يعن له من قيم ويخلق ما يريد من مبادىء ، لأن وجوده هو سابق على أى مثال ينزع اليه • أما أن تصور وجود ذلك المثال ، أو خيل اليه وجود اله يهيمن على أفعاله ، فانما يكون قد قصد التخلى عن حريته والتنصل من ارادته وترك وجوده لحتمية الواقع تجرى على أى تيار يحمله •

تقدير الفكر الوجودى المعاصر :

وهكذا ينتهى الفكر الوجودى المعاصر الى ما يمكن أن نوجزه فى نقط ثـلاث :

١ ــ محاولة أساسية لتأكيد الخصائص الذاتية للفرد ، تأكيدا يلغى ازاءه المجموع ، وينحى فكرة الماهية أو المثل السابق ، ومن ثم يرفض الاعتقاد بوجود الله •

٢ ــ فرض حاد يخير الانسان بين أن يكون فردا أصيلا متميزا عن سواه ، أو أن يكون مجرد جزء من كل وشخص من مجموع • لكن هـذا الفرض لا يبين كيف يمكن للانسان أن يجرد حريته مما يختلط بها من موضوعات وما يتداخل معها من ظروف ، ولا يبين مدى الاصالة والتميز الذى يفترض أن الانسان قد عرف به ــ بالفعـل ــ معنى الحرية ، وهل هذا التميز يعنى الغرابة والشذوذ ــ أم له ثمة ضابط محدد يوازن بينه وبين القيم السائدة ؟

٣ ــ فكرة عامة مؤداها أن العمل الخير هو العمل الأصيل الذى يعبر عن ذات الفرد أصدق تعبير • وقد افترضت هذه الفكرة أن كل مايعبر عن ذات الفرد عمل خير ، بصرف النظر عن حقيقته ، ودون ما تحديد لمعيار واضح يفرق ما بين التبر والتراب •

***

وبهذا صار الفكر الوجودى المعاصر فلسفة مرهقة ، تغلق الوجود الفردى ثم تسوره بالقلق والألم والظمأ الملح لسراب حقيقة لا تلبث سوى لحظة ثم تختفى ، فيصبح على الوجودى أن يبحث وحده عن حقيقة غيرهـا دون ما هاد يرشده عن سبل الحق وسبل الضلال ، أو يساعده فى التمييز بينهـا •

ومن الواضح ان الفكر الوجودى لم يصل الى هذه الظلمة الا بعد ماأغمض عينيه ووضع عليهما عصابات من الفهم الاسود ، فأبى اتبـاع الفكر الوجودى السديد وأعرض عن قيم البشرية كلها • فهو ــ بذلك ــ منسحب من الوجود الصحيح الى الوجود الضال ، منصرف عن التقدم الحقيقى الى القوقعة الذاتية •

أما الحــق كل الحــق ، فهو فى فكر يفتح الوجود الفردى من كل جانب ، فتحا حقيقيا لا وهم فيه ولا خداع ، فيفرض عليه التعاون مع الناس كافة ، فى نطاق من القيم الجمالية والمثل الرفيعة ، حتى يسمو بنفسه الى جوهر الحق والجمال ، فى مسلك يسمعى به الى جلال القدسية ، على مرقى يعرف منه معيار فعله ويجد فيه ــ مع الخير لديه ــ جزاء الفضل وجزاء العدل •

***

قصيدة الوجود

قصدية الوجود

لم يعد بيان تاريخ الوجودية فى الفكر البشرى قصرا على استتباع وجهات النظر المختلفة ، بعدما انتهى هذا الفكر ، فى العصر الحديث ، الى لغوب القول بأن ثمة تساوق بين ارتقاء الوجود ذاتا ، واعتناق الالحاد فكرا، بل أصبح من المتعين — استكمالا للبحث — أن ينفذ الى المطاوى البعيدة ، حيث يتركز الوجود الفردى على فكرة واحدة ، هى من قيمة كلها بمثابة النبع الذى يدفع الماء فى انبثاق دائم ·· تلك هى ايمانه بالله واعتقاده فى ذلك ·

ولما كان للأمر — فى نطاق العلوم الحديثة — تقدير آخر ، فان الباحث لا يستطيع أن يغفل هذا النظر أو يعرض عنه ·

***

لقد فقد الوجود الانسانى كثيرا من معناه فأصبح سليب الهدف لدى هؤلاء الذين آمنوا باتجاه علمى جامد يعتبر ان أفعال الانسان لا تصدر عن اصراره الخاص ، وانما هى ثمرة لقوى فطرية واجتماعية تسوقه فى طريق محدود ، كما لو كان برطوما لا ارادة فيه ولا ذاتية · واذ كانت الفكرة فى وجود روح لدى الانسان ، ومن ثم فى قصد له أو غاية منه ، فقد توثقت — ازل العقل — بفكرة وجود روح عظمى شاملة ، فقد أصبح جنوح الاعراض عن احداهما يؤدى — تلقائيا — الى جنوح الاعراض عن الأخرى · ومفاد ذلك أن دراسة الوجود الفردى تتشابك — الى حد كبير — بالمسائل الخالدة عن وجود الله ، والجبر والاختيار — والخير والشر ، والقضاء والقدر · ومع تجنب هذه المسائل جميعا ، الى مجال آخر ، فانها تتصل — فى نطاق البحث — بأمر انغلاق الوجود أو انفتاحه ، وهو ما يمكن التعبير عنه — اتفاقا معها — بقصدية الوجود ·

فمما لا مراء فيه ان الوجود الفردى ينفتح ـ الى درجة تجب صورتها معنى اللفظ ـ اذا كانت له غاية أو كان له قصد ، كما أنه ـ من جانب آخر ـ ينغلق على نفسه تماما ، اذا ما جرد من القصد أو نصل من الغاية ٠

هل للوجود قصد !؟ :

وقد تناول المفكرون ـ مدى التاريخ ـ هذا الأمر بالبحث الى ان اتخذ فى العصر الحديث اتجاهات ثلاثة تتفق فى اسناد الغرض الى الوجود ٠

فالاتجاه الأول ـ ويسمى بالنظرة الآلية ـ يرى أن تطور الحياة كان بمثابة حلقات متتابعة من التكيف والمهايأة مع الظروف الخارجية قصد الاستمرار ٠ وهو ـ لذلك ـ يؤمن بالحتمية ويقدم للواقع تفسيرا يجعل منه كتلة واحدة محددة منذ الازل ، وبهذا يجمع الماضى والمستقبل معا فى الحاضر ، ويخضعهما للحساب والتحديد ، بالنظر الى وظيفة كل منهما ٠

ومن هنا رأى أحد أصحاب هذا الاتجاه أنه من الممكن لعقل يستطيع أن يخضع وقائع الكون للتحليل الرياضى أن يحيط علما بكل شىء فيه ، اذا ما علم ـ فى وقت ما ـ جميع القوى التى تحرك الطبيعة ، وموضع كل كائن من الكائنات التى تتكون منها ٠ كما رأى آخر انه من الممكن أن يصل العقل البشرى الى التعبير عن حركة الكون كله بصيغة رياضية واحدة ٠

والاتجاه الثانى ـ ويسمى بالنظرة الغائية ـ يرى على العكس من الاتجاه الأول ، ان تطور الحياة جرى عبر التاريخ تحقيقا لمقصد كلى عين من سالف الدهر ، بما يعنى أن كل موجودات الطبيعة قد جعلت بحيث تحقق برنامجا موضوعا من ذى قبل أو غرضا سابقا تحدد منذ الأزل ٠

أما الاتجاه الثالث ـ فقد جاء على رفض للأول وتعديل للثانى ، فيما يسميه الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون ، صاحبه ، التطور الخالق ٠

ويرى هذا الفيلسوف أن كلا الاتجاهين ـ الآلى والغائى ـ عكس للآخر ، فبينما تستمد النظرة الأولى حركات التقدم من دفع الماضى ، تستعيض النظرة الثانية عن ذلك بجاذبية المستقبل ٠ فكأنما تضع أحداهما نور الهدايا خلف البشرية ، ثم تعكس الثانية وضع النور فتجعله الى الامام ـ وذلك خلال سباق الذكاء الانسانى المتناهى على طول الطريق ، الأمر الذى يجعل تعاقب الأحداث وتوالى التطور ـ فى كلتا الحالتين مجرد مظهر يتبدد فيه الزمان ـ بالنسبة الى العقل الذى يوجد وسط الأشياء ـ على غرار الضباب المتكاثف ٠

ويضيف برجسون ، ان الحياة تعلو على الآلية والغائية معا ، اذ هى سورة حيوية تدفع من الخلف حقـــا ، ولكنه دفع ابداعى ، هو من التطور أشبه بصاروخ يتفجر شذرات ، ثم توالى كل شذرة منه التفجر والتفجر الى مالا نهاية • وهكذا توالى الحياة التقدم بغير ما وسيلة الى التنبؤ مقدما بأشكال الصور المختلفة التى سوف تنشرها خلال مراحل التطور والتقدم •

ثم يسوق مثالا هاما ، يحاول أن يثبت بمقتضاه ان الحياة عاقلة هادفة ، تسعى الى الرقى والتقدم ، فتستعين — خلال اندفاعها للهدف — بأدوات مختلفة لتحقيق أغراض متشابهة •

« فعين » الحيوانات الفقرية و « عين » الحيوانات الرخوة مركبتان من عناصر متماثلة وتقومان بوظيفة واحدة — هى الابصار ، مع أن هذين النوعين من الحيوانات قد انفصلا عن أصلهما المشترك قبل ظهور عضو الابصار فى أى منهما ، فضلا عن أن شبكية الحيوان الفقرى تنشأ فى الجنين من الدماغ بينما تنشأ شبكية الحيوان الرخو من الجلد •

المبـدأ الحيوى :

وعلى هذا المثال ، واشباهه خلص الاحيائيون من دراسة التاريخ الطبيعى الى ما يفيد أن الوظيفة تخلق العضو ، والصورة تصنع الجسم، وهو ما يعنى — بدوره — ان هناك مؤثرا غير مادى ، ذا صبغة خاصة ونزعة اكتمالية ، يكمن فى صميم الكائن العضوى ، ويهدف به الى تحقيق قصد خاص •

ففى الانسلاخ الخلقى يتحول اليسروع الى حشرة فى تطور باهـــر عجيب ، حيث تتخلق من الأعضاء والأنسجة أبنية جديدة تختلف عن أصلها تماما ، فاذا بالدودة بعوضة مجنحة ، خلقت من أنقاض بدنية لتلك • وفى التكاثر البويضى تنقف البيضة عن فرخ كامل ، يسعى الى الحياة سعى العارف بها ، لا وجل فى خطواته ولا خوف • وفى الهجرة من مكان الى مكان تسافر الطيور أسرابا وتجرى الأسماك زرافات ، فلا تضل فى مجاهل الماء هذه ولا تتوه فى فضاء الريح تلك • وفى التنظيم الجماعى تدير قرى النحل خلاياها وتنظم زمر النمل ممالكها فى صور غاية فى التعقيد ، ولكنها — مع ذلك — غاية فى الدقة والنظام والبساطة •

وفى جميع الموجودات — نباتية كانت أم حيوانية — تنمو الأعضاء بصورة نظامية موحدة لتتخذ خصائص النوع الذى تتبعه • ويمضى النمو متسقا بلطف ، متسارعا فى بعض النواحى ، متباطئا فى أخرى ، متحاذيا

على الدوام ، فيبدو كما لو أن المخلوق الناشيء يتجه نحو هدف محدد المعالم ، ويسعى الى غاية ثابتة جاء الى الكون مشحونا بها ٠

وهكذا يلتقي الاحيائيون مع الفلاسفة ، ويتطابق الفكر والعمل ، في نظر معين يرى أن الوجود عموما ، والوجود الانساني من باب أولى ، ينطوى على الغــــرض منه ، ويمتلىء بالقصــد من خلقه ، وان هذا وذاك يترسبان في أعماق الكيان الفردى فيخلقان فيه نزعة اصرارية تستهدف تحقيق ذاتها ، وتسفر عن نشاطها شيئا فشيئا ، في نزوع ابتكارى يبتغى الجدة ويرمى الى الابداع ٠

ففى البويضة الملقحة ــ تلك التى يتكون منها الجسد البشرى ــ خليط كبير من الصبغيات التى تحمل آلاف الخصائص والوحدات الوراثية، وهى تعمل جميعا ، أثناء عملية النمو والتخلق ــ بطريقة متناسقة بديعة ، حيث تتعاون كلها فى سبيل تكوين فرد بالغ ، دون أن تعوق فى العمل بعضها بعضا ٠

وفى شتى أوجه النشاط العضوى للانسان تتجلى فى الأجهزة والخلايا صفات معينة تدل دلالة خاصة على وجود غرض مشترك تعمل جميعها من أجله ٠

وفى مظاهر السلوك العقلى والغريزى فى الذات البشرية تتجلى التوجهية والقصدية فى الفكر والعمل ، على نحو صورة تطبيقية من الممكنات الخاصة والمقدرة الطبيعية ٠

وفى التصرف الاجتماعى للفرد ، وانتهاجه شتى سبل التكيف وطرائق المهايأة ، ثم اتباع خط معين فى الحياة الخاصة والاصرار على وضع بعينه ما يعنى ــ فى قطع الحكم ــ انها جميعا صور للأغراض الثانوية التى تنطوى عليها الحياة ٠

أثر القصد :

وبهذا ينتهى الأمر ــ نظرا وتجريبا ــ الى اعتبار القصد والغاية طابعا للوجود الانسانى ، ومرادفا له ، ينبث فى كل مقوماته الخلقية ثم ينتشر فى كل تصرفاته الذاتية ؛ بحيث يهتز وجوده ويتوتر اذا ما جهل غايته فانحرف عن الطريق ٠

الحافز والهدف :

غير أنه ثم فارق دقيق بين الحافز والهدف ، قد يثير الخلط فى أذهان

مغلقة ، ننكر على الانسان ذاتيته ، حين يخيل اليها ـ من عسر الفهم ـ ان وجوده كتلة صماء تخضع للظروف خضوعا هو الى الاذعان أدنى وأدخل .

فالأمر بين الحافز والهدف هو الفارق بين الدفع والتوجيه ، أحدهما مادي يسلب المدفوع ارادته والثانى معنوى يرسم للموجه دون أن يضغط عليه .

وهو ـ فى نطاق الوجود الانسانى ـ يعود الى ما اذا كان السلوك الفردى راجعا الى شيء خارج عنه ، أى الى منبه مستقل عن ذاته ، أم الى شيء كامن فيه ذى أصل فى فطرته ، شيء أصيل ذاتى ، مستقل ـ ولو جزئيا ـ عن أى سيطرة خارجية .

والواقع أن الوجود الانسانى جماع حيوى بين الحوافز والأهداف يبذل طاقاته فى التوفيق بينها تباعا ، ما ظل واعيا ، حريصا على التوازن الذاتى . فالأهداف ، هى ما شحن به هذا الوجود من سالف ، وجاء الى الكون ممتلئا بها متناسجا معها ، عليه فرض الخلق أن يسعى لتحقيقها جميعا ، ماعد منها جزئيا أو ثانويا وما كان منها كليا أو رئيسيا . أما الحوافز ، فهى تلك الظروف التى تتداخل مع الارادة الفردية والموضوعات التى تختلط بقدراتها ، فى سيطرة عليها حينا ، واستسلام لها حينا آخر، ومراوحة بين ذلك فى أغلب الاحيان .

***

فالحوافز تتشكل من عوامل الوراثة وعناصر البيئة وأفكار المعتقد وحقائق المثل وما الى ذلك مما يختلط بالذات الانسانية ، ان حجبا لها ـ لو وهنت ، أو كشفا لأصالة معدنها ـ ان قويت . هذه الحوافز تعتبر بالنسبة الى الوجود الفردى ، ومن تم الى أهدافه الطبيعية ؛ منشطات تدفعه اليها وتسهل تقدمه أو مثبطات تعوقه عنها وتعرقل تحركه .

فهى تنشط بقدر ما تعرف الانسان بالهدف الأول من وجوده ، ثم تجمعه به وبالأهداف الثانوية له ، وتجعل من هذا الوجود مجالا طلقا لتحقيق هذه الأهداف ونشدان ذاك الهدف . وهى تثبط بقدر ما تجهل للانسان أهداف وجوده ، أو تبلبلها له ، فتحيل هذا الوجود الى مجال عسر لا ينشد أى هدف ـ بالمعنى المقصود من الكلمة ـ وليس بوسعه أن يحققه .

والأمر فى تفاعل الحوافز والأهداف بالذات الانسانية أشبه مايكون بالحمام الزاجل حين يؤخذ بعيدا عن مكانه ثم يطلق اليه ، فيعد هذا المكان هدفه الذى لابد من جانبه أن يسعى للوصول اليه . غير أنه قد يصادف فى طريقه الى هذا الهدف ذبذبة لاسلكية أو مجالا مغناطيسيا

موائما ينشطه للوصول ، كما قد يصادف فى ذلك الطريق ذبذبة أو مجالا منهما غير موائم يثبطه عن هذا الوصول • وبقدر تشبع الحمام بقصده وتصميمه على الوصول اليه ، تكون مغالبته للذبذبة المعاكسة والمجال المخالف ، بحيث يصل الى غايته بالفعل ؛ مهما كابد من عناء • وبقدر فتور هذا الحمام عن قصده ، وضعف تصميمه على الوصول اليه ، يكون تغالبه للذبذبة المعاكسة والمجال المخالف ، بحيث تتبدد الغاية من كيانه ويذوب القصد كلية ، فيصبح — بعدهما — هائما شاردا حائرا ، يسير فى أى مسار مفتوح ويطير مع أى تيار قوى •

***

والانسان كذلك — يوجد فى الحياة بكينونة تمتزج بالهدف من وجوده ، وتتوشج بالأهداف الثانوية له • ومتى تفاعل مع الحياة ، وانطلق وجوده على استمرار مع الأحداث وامتصاص للمجال المعتمل به ، ظهرت الحوافز فى هذا الوجود ، وبدأت فاعليتها عليه ، ان تنشيطا لو ساعدته فى معرفة أهدافه وغايته ، ثم هيأت له سبل تحقيقها ، أو تثبيطا لو لم تساعده فى ذلك ، بل سيطرت عليه فأعمته عنها وطمست له بصيرته •

والأمر — كما يظهر — يدور على مدار واحد ، هو مدى تشبع الكيان بالغاية والهدف ، ووضوحها على وجوده أو غموضها فيه • فاذا كان الشحن بالغاية قويا ، أصبح الوجود الفردى مشدودا اليها ، وصار تصميم الوصول أوفى رغبة التحقيق أعمل • اما ان كان الشحن بالغاية — على العكس — ضعيفا ، فان ارتباط الوجود الفردى بها ، يصير على وهن وخور ، ولا يقوى على البقاء ولا يستطيع الصمود طويلا •

والفرد — فى وجوده — مطالب بأن يستشف القصد منه والغاية ، وأن يعزل الحوافز المعيقة من مجاله ، ليمكن ذاته من طلاقة السعى لتحقيق الغاية وبلوغ القصد •

تحديد المعيار :

وعليه — فى ذلك — أن يجعل أساس التقييم ومعيار التقدير فى التفرقة بين الحوافز المنشطة والحوافز المثبطة — على المعنى السالف بيانه — هو اعتباره مناشطا ، كل ما يفتح الوجود ويصفى الذات ويجذب النفس الى مثل عليا وقيم فاضلة — بمفهوم الفطرة ومدلول الجماعة ، واعتباره مثابطا ، كل ما يغلق الوجود ويعكر الذات ويبعد النفس عن أى مثل موضوعى وأى قيمة ثابتة •

وفى قاعدة عملية نبلور الأمر للكافة على نهج تجريبى يتمكن به النير وغير النير من استبار قصدالوجود واختبار قدر الحوافز ، ينظرالىحال الكيان خلال تفاعلهما معا • ان ظهر الاضطراب فى خط الحيـــــاة وشمل التوتر محيط الفرد دل ذلك على أن الوجود قد اهتز ، بما يعنى عدم تلاؤم السلوك مع القصد والغاية • اما ان حدث العكس ، فران الهدوء على الحياة وتوشح بالسكينة محيطها ، دل ذلك على أن الوجود قد توازن ، بما يفيد معنى تلاؤم السلوك مع القصد والغاية •

هذه القاعدة التجريبية ، تكاد تكون احدى قواعد الحياة الثابتة ، تلاحظ فى الماديات والمعنويات معا ؛ وتظهر فى العضو والمجموعة على حد سواء • فمن المعروف ـ فى علم دراسة وظائف الأعضاء ـ انه ما من كائن عضوى ينحرف عن الطريق من حيث الاتجاه نحو الغرض منه ، حتى يحدث له توتر يرده الى سواء القصد أو يذهب كلية بصلاحية بقائه • كما انه من المشاهدات الواضحة ـ فى محيط التنظيمات الجماعية ـ انه ما من فرد فيها ينحرف عن السبيل الذى يتعين اتباعه ، حتى يحدث اضطراب حوله يعيده الى سواء السلوك أو يلغى الفائدة من كل وجوده ؛ بما يجعله عبئا على الجماعة يحسن التخلص منه •

المادية تعارض :

على أنه ـ رغم وضوح ما سلف وثبوته علميا ـ فان تلك النظرة الجامدة التى أشرنا اليها ، لم تزل تعد الوجود الانسانى صورة متطورة من حياة الحيوان ومرحلة من مراحل تقدم المادة • وهى لذلك لا تؤمن بانفتاح هذا الوجود لأية غاية ، كما أنها تنكر أية فكرة تربط بين الوجود الفردى ووجود خالق سام كامل ؛ وبالتالى تنكر اتصال الأديان بما فوق الذات • وهى ـ من ثم ـ لم تزل ـ كذلك ـ تنظر الى الانسان باعتباره كتلة من ظروف الحياة وموضوعاتها ، تتصارع فيه هذه وتلك بلا فائدة تعود عليه من ذلك ، الا الألم والارهاق والقلق والندم ، ثم العدم فى النهاية •

وتستند هذه النظرة فى تقديرها الى الدراسات المادية التى لا تؤمن بغير ما يقع تحت الحس الفردى ، وما يدخل فى مفهوم العقل وادراكه •

وبعيدا عن وصمة الالحاد ومناقشته ، فان هذه النظرة تقارع بنظرة أخرى ترى أن العلم لم يقطع بانعدام ما وراء المادة ، كما انه لم يكتشف بعد حدود مافى العقل البشرى من طاقات وما ينطوى عليه من قدرة وامكانية . فهذا العقل ليس غير ومضة من ومضات الذهن ظهرت فى المجال المادى ،

وهى بهذا المفهوم لصيغة المادة ، أكثر قدرة على فهمها ، منها على ادراك ما سواها ٠

***

فالعقل البشرى محدود بنطاق الحواس ، قاصر على نحو ما ثبت علميا من قصورها ٠ وهو ـ بذلك ـ مجعول لتحليل المادة والسيطرة عليها فحسب ٠ ومن هنا كان رنوه الى غير هذا ، طموح منه الى المطلق وتعلق به ، يقتضى الاستعانة ببعض نفحات الذهن ولمحاته استعانة خاصة لا يقدر عليها الا ذوو المواهب الرفيعة ممن يملكون طرح زواتهم خلف سياج المادة وخارج أسوار العقل ٠ ويعبر عن هذه المقدرة الفائقة بتعبيرات عدة ، فهى الحاسة السادسة حينا ، وهى الالهام حينا آخر ، وهى الحدس فى قول ثالث ؛ وهى الكشف فى قول رابع ٠٠٠ الى غير ذلك من صفات تقطع بوجود الموصوف والحيرة فى شأنه عند النظر اليه من زوايا المادة ٠

***

والاقتناع بهذه الفكرة يعد ـ بلا مراء ـ سعة فهم واتساع أفق ومرونة تقدير يجمع بين النظرتين بما يؤدى ـ فى صدد البحث ـ الى الايمان بما فوق الذات وما يعلو على الوجود الفردى ٠ وبهذا يمتلىء هذا الوجود احساسا بانفتاحه ، ثم يسلم بذلك ، فيبحث عن الهدف منه ، ويسعى جهده الى تحديد قصده ؛ ونبذ ما يعمل من الحوافز المثبطة على اغلاق الوجود واغفال تحقيق الذات ٠

وأبدا ، لن يجد الانسان هدوء نفسه وسكون حاله وصفاء حياته الا فى هذا الاتجاه ، حين ينتهى به الأمر الى الايمان الواعى بالله سبحانه وبالأديان كلها ، وبكل المثل الرفيعة والقيم السامية ، وبذا ينفتح وجوده ـ بفكره وتقديره ـ انفتاحا تاما ، فيرق وجدانه حتى يطوى الكون كله ويدق فهمه حتى يحيط الوجود جميعا (*) ٠

---

* لسهولة المتابعة كذلك ، حجبنا عن النشر فى هذا المجال فصلا عن معنى الوجود، مكانه فى السياق بعد هذا الفصل مباشرة ، ويتضمن وجهة النظر الخاصة عن فكرتى الوجود والماهية ـ أو الواقع والمثل ـ وكيف أنهما يتداخلان فى ذات الانسان الحق ، حتى يصبح وجوده عين ماهيته ، وواقعة مثل الحياة ، وهو نظر يرى أن تقدير التتابع بين الوجود والماهية ، وتحديد الاولوية بينهما ، فكر أدنى الى اللغو والجدل واشهار الكفر بالانسان ٠

الخلاصة

خلاصة

الوجود ، هو الطريقة الانسانية فى الحياة ، أو الاسلوب الذاتى فى الكينونة ، وهو يعنى سيلان الوعى المستمر على مدى الاحداث ، فى ادراك واقعى لها ، وتصرف طبيعى معها ٠

***

انه ذات الانسان الحية ، تسفر عن نفسها طاقة طاقة ، وشيئا فشيئا ، فى محاولة لتحقيق هدف شحنت به وقصد امتلأت بمعناه ، مما يجعلها ـ حين تحقق أغراضها ـ تعبيرا جديدا فى الحياة وكلمة مستحدثة فى فم الدهر ، تسعى الى تحقيق هذه الأهداف والمقاصد بحياة واعية يقظة تمتص رحيق الكون وتختزن شذاه ، حتى ينتج عنها فى شهد الفعل وعطر الفكر وأريج القول ٠

***

هذه الحياة الراقية لا تلتزم أسلوبا واحدا ، ولا تختط سبيلا محددا ، بل انها تختلف من شخص لآخر ، ومن وجود الى وجود ، فتظهر مع كل حال بصورة تغاير الثانية ، وان جذبتها جميعا غاية بعيدة سامية ٠

تتغلف بالفكر فتسمى فلسفة ٠٠

وتتدثر بالاحساس فيقال انه الفن ٠٠

وتختلط بالمعاناة فيرى فيها التصوف ٠

***

وهى ، فى أى صورة لها ، فلسفة أو تصوفا أو فنا ، تنطوى على

اشراقة الرضا وتنشر ضياء السكينة ، فتحيا فى لجى الأحداث باعتداد وعزم وثقة ، حياة الواقع الذى ينبت ان ماهيته هى عين وجوده ، وبمعنى آخر ، ان مثال الانسان هو ما حققه وجوده بالفعل ٠ وان عليه ــ الى جانب هذا ــ أن يعلو على نفسه ويرتفع فوق هذا الوجود ، بدفعة الايمان العميق بذاته ، وبمصيره ، وبالله سبحانه ، فيبدع انسانا حقا ٠

فالحياة / تعبير الخالق ٠٠

والوجود / تعبير الحياة ٠٠

والابداع / تعبير الوجود ٠٠

***

فهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	٣
تمهيد	٥
الوجود لفظا	٩
الوجود تعبير الحياة	١٥
الوجود في الفكر القديم	٢١
الوجود في الفكر الوسيط	٧٥
الوجود في الفكر الحديث	٨٣
قصدية الوجودية	١٠١
خلاصة	١١١

مطابع الدار القومية

١٥٢ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٦٠ الثمن ١٧ قرشا